ليلى الجهني

الفردوس اليباب

رواية



منشورات الجمل

ليلى الجهني: الفردوس اليباب

ليلى الجهني

الفردوس اليباب

رواية

منشورات الجمل

ولدت **ليلى الجُهني** عام ١٩٦٩ بمدينة تبوك ـ السعودية. درست في جامعة الملك عبد العزيز في المدينة المنورة. بكالوريوس لغات أجنبية وما زالت تواصل دراساتها الجامعية. نشرت العديد من القصص القصيرة، كما فازت بعض أعمالها في عدة مسابقات أدبية محلية.

ليلى الجهني: الفردوس اليباب، رواية، (ط١، ١٩٩٩) ط٢، ٢٠٠٦

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany
Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

الهواء يموت مخنوقاً

وإذ رأيته واقفاً بجوارك ليلتها أردت أن أغني. أجل، كان الغناء هو كل ما تواثب إلى الذهن وذراعه تلتف حول ذراعك مثل أفعى. أردت أن أصرخ: (خالدة، لا). وقفت الكلمات خلف الشفاه وبدا أن العالم صاخب إلى حدّ ألا تسمعيني. ولكن، ماذا أغني في تلك اللحظة وأنا أرى عامراً الرجل الذي قال لي: (أحبك)، بكل طريقة ممكنة؛ قالها صارخاً، ضاحكاً، مستلقياً، سابحاً، هامساً، حزيناً، محبطاً، قالها وهو يقبلني، قالها وهو يهزني بعنف، ماذا أغني وأنا أراه وهو يلبسك ـ يا صديقتي التي لا تعرف شيئاً ـ خاتم الخطبة؟!

كانت وجوه كثيرة تسبح في الفضاء الممتد بين عامر وبيني، حتى خاتم الخطبة كان يطفو قليلاً ثُمَّ يغوص مثل وردةٍ مربوطة بحجر. وميكائيل ينفخ في الصُّور والتفاصيل المذبوحة في قلبي تُنشَر، تُبعث عارية إلا من أساي. في آخر الأمر يا خالدة، كنتُ أنا أيضاً قد تعريت أمام الشيطان فوق أرض الله وتحت سمائه. أتصدقين يا خالدة؟ مرتْ أيام كان الهواء يموت فيها مخنوقاً بين جسدينا الملتحمين عامر وأنا. وليلة رأيتكما مات الهواء مخنوقاً بالبكاء الرابض على أطراف حلقي، وعامر مثل فأرٍ في مصيدة يخاف أن أضع طفلنا/ إثمنا تحت قدميك وأسألك بالله وبأسمائه الحسنى أن تنصفيني! ليته عَلِم أني لم أُردْ أكثر

من أن أغني؛ كي يكفَّ طفل مجروح بأحشائي عن أن يضرع إلى الله أن يخسف بي الأرض أنا التي لم يبقَ إثم لم أرتكبه. أغني في انتظار أن يأتي رسول الواقعية صلاح أبو سيف كي يصورنا، لكن حتى صلاح أبو سيف خذلني ليلتها. مات، أماته الواقع الذي لستُ أدري ماذا سأفعل به، بل ماذا سيفعل هو بي؟

(آه، الآن تذكرتِ الواقع يا صَبا؟ الآن فقط فكرتِ في الوجه البشع الذي كشفه لكِ؟ ابكي، ابكي مادمتِ عاجزة عن الغناء. ضاع كل شيء، حتى أنتِ ضعتِ).

بالله خالدة لا تفتحي أبواب العذاب بيديك، أمّا أنا فلأتردَ في جهنم سبعين خريفاً؛ أنا التي غافلت الحرس وولجت الفردوس قبل أن يأذنَ الله لمخلوق. أجل، فلأتردَ في جهنم سبعين خريفاً. مرة لأجل خطيئتي ومرة لأني وقفتُ أمامك ليلتها عاجزة عن أن أصرخ (خالدة، لا). عاجزة عن البكاء، وعاجزة ـ يا للخيبة ـ عن الغناء.

وأنت يا خالدة لا تعرفين ديك المزابل الذي أسلمته يدك. لم تريه حين كان يربتُ على خدي بأنامل لزجةٍ وابتسامة هازئة على وجهه وهو يقول:

ـ يا ستي ما احد جبرك. وإذا كان ع الحب فالحب راح، ضاع، بح (وأشار بيديه) والنونو إللي فبطنك اضحكي بيه على غيري، ولا دوري مين أبوه.

* حيوان إنت عامر؟! إنت خراب، دمار.

وحين دفعني بعيداً عنه كان لحم وجهه ورقبته تحت أظافري. من أين جئتُ بكل ذلك العنف يا خالدة؟! ومن أين جاء كل ذلك الطنين الذي ملأ أذني وصوته كأنما يأتي من جبٍ عميق القرار:

ـ إذا قدرتي روحي وقولي إنك حامل مني يا ست صَبا. اتحداك. سمعتيني، اتحداك يا صَبا يا فاهمة، يا واعية، يا حقت الكتب والجرايد. الحب مزبلة يا صَبا وأنا ديكها المؤذن. وترى هادا الكلام لقطته من الكتب حقتك. مزبلة وانت دخلتيها برجولك. قلت لك من البداية ما احد جبرك.

* حيوان، حيوان، حيواااان.

ظللتُ أرددها طويلاً وليلة خطبتكما وددتُ لو أني صرخت بها؛ لكني كنت غزالة مصوبةً مطروحةً وسط غابة من العيون النسوية المملوءة فضولاً والتي كانت ترمقني من كل الجهات. تتطلع إلى الحيرة والحزن وارتباك المباغتة المؤلمة. مباغتة أن يكون عامر هو الذي قلتِ عنه يا صديقتي: (تعالي كي تعرفيه). ما كنتِ تدرين أن المعرفة بيني وبينه غرزتْ في القلب نصلاً جارحاً اسمه: التجربة!

ووسط الحزن والذهول رأيتُ الوجوه التي عرفناها معاً. رأيتُ الشواطئ والبيوت التي ارتدناها معاً. رأيت الصُحف والكتب. أتدرين ماذا فعلتُ بالكتب؟

جمعتها هذا المساء ثُمَّ أسلمتها للنار في برميل كان في الشرفة. كنتُ ألقيها كتاباً كتاباً ورائحة الورق المحروق تملأ رئتي، والأسماء والأمكنة والسطور كلها تتلظى في الجحيم وربما كانت تلعنني، أجل مثلما سيلعنني الناس غداً وهُم يتهامسون (كان في حياتها كثيرون. كل رجل كتبت اسمه عرفته. كل رجل ذكرته عبر على جسدها). وأنا لم أعرف غير رجل واحد رمقني وهو يقف بجوارك بمقت لا حدَّ له بعدما عبر على جسدي بحب لا حدَّ له أو على الأقل هكذا ظننتُ.

كيف تبدل الأشياء ملامحها وأسماءها؟ وهل غيّر الحب ملامحه

واسمه؟ المسألة يا خالدة إما أن تكون حباً أو لا حب. وعامر كان مغامرة. علاقتي به كانت مغامرة مجنونة غير محسوبة النتائج، عاقبتها حتماً وخيمة. لم يتغير شيء. كل شيءٍ كان واضحاً منذ البداية، أنا وحدي التي تعاميت ومضيت مدفوعة بإغراء التجربة، وأي تجربة؟!

آه، رأسي. مطارق ضخمة تهوي عليه من كل جهة، وصخب مريع، طنين وأزيز وهدير وأذناي تغليان. وأنت يا خالدة، هل انتبهتِ؟ أود لو أهزك الآن، أذكرك بأحاديث العذاب:

ـ خالدة، أليس عذاباً أن تكوني امرأة؟

* أحياناً يداهمني هذا الشعور عندما أحرم من أشياء تافهة فقط لأني امرأة.

ـ مثل ماذا؟

* مثل أن أعلق صورة صلاح السعدني على جدار غرفتي (وضحكنا). حين علّقتُ صورته أتدرين ماذا فعل أبي؟ أنزلها ومزقها أمام عيني ثُمَّ خرج دون أن ينبس بكلمة. تعرفين يا صَبا، لا ينبغي لشابة مؤدبة أن تسمح لرجل غريب بالنوم معها في غرفة واحدة. لم يدرِ أبي أني بدلت ملابسي أمامه ثلاث مرات (وضحكنا).

ها ها ها، ها ها ها. ضحك كالبكاء وبكاء كالضحك. مسرح؟ أوه، أجل مسرح. ألم يقل شكسبير (إن العالم كله مسرح، وإن الرجال والنساء مجرد ممثلين، يدخلون المسرح ويخرجون في أوقات محددة). أجل قاله ودرسته ثُمَّ غار في بحر الظلمات. ليس هذا وقت شكسبير يا خالدة، أعتذر. شكسبير في الكتب وعلى مسارح لندن. شكسبير مات. اغتاله شايلوك وتردى في جهنم وبئس المصير.

شايلوك الآن وحده على المسرح، وحده يكتب ويمثل ويبدع والجمهور أموات، أموات! آه، خالدة تعالي. أريد أن أبكي بين يديك. بكاء أخير؟! ربما. وربما وداع. تطلعي إليَّ مرة واحدة. مرة أخيرة نركض فيها تحت المطر في شارع قابل وسط أمواج البشر ونضحك والعيون ترمق باستغراب وربما بازدراء امرأتين مجنونتين تركضان بمظلتيهما في مكان لا يركض فيه عدا الرجال.

تعالي من أجل فنجان قهوة أخير في أحد المطاعم الصغيرة المتناثرة في حي البلد وباب شريف. فنجان أخير نرشفه ـ لو شئتِ ـ في المقهى الصغير ذي الواجهة الزجاجية في باب شريف، نرمق امرأة جلست على طاولة جانبية تدخن بعصبية وطفلها متعلق بيدها (ماما، ما رحنا محل الألعاب زي ما وعدتيني). نثرثر قليلاً وثَمَّ عامل تركي يقف بالخارج تماماً أمام وجهي ويبتسم، وإذ تلتفتين يبتر ابتسامته ويشيح. (وجع في شكلو قد كدا أنا وحشة؟!)؛ واضحك ويبتسم ثانية ثُمَّ يغمز بطرف عينه فإذا التفتِ مرة أخرى أغمض عينيه واستدار قليلاً قبل أن يلوح بيده ثُمَّ يمضي مثل حلم، مثل أشياء كثيرة عبرتنا دون أن ننتبه. فتعالي يا خالدة مرة أخيرة نطوف فيها جدة معاً.

جدة!

أجل، ربما ليس لي في هذه اللحظة غير جدة. حتى طفلي ليس لي، تخيلي! ربما كان ينبغي عليَّ أن أفكر في اقتحام جدة لا في اقتحام الحب. على الأقل يا خالدة كي لا أقف مثل هذا الموقف بين يديك. ربما كان يجب أن أخلص لجدة وحدها واكتب عنها. عن التناقض الذي ترفل فيه ويجعلها جميلة أحياناً. عن الشوارع العريضة بمعالمها المتباينة: الكنداسة، السيف، الدراجة، النورس، عمارة

الملكة، فتيحي، الجمجوم. أو ربما كتبتُ عن الأمريكيات (وربما كن أوربيات. لست أدري في ذلك العمر كانت كل امرأة بشعر أشقر وعيون ملونة: أمريكية) أجل الأمريكيات اللائى كن يقدن سياراتهن في شوارع جدة منذ زمن بعيد. ربما منذ أكثر من عشرين عاماً. الآن يا خالدة، لا الأمريكيات ولا غير الأمريكيات يحلمن بقيادة سيارة واحدة في شارع خلفي من شوارع جدة.

أجل، جدة أمسِ، جدة اليوم، جدة غداً؟ أي غد؟ (يا ويلي من غدي هذا) (عظمة على عظمة يا ست). خيبة على خيبة يا ست. لم يبقَ شيء يا خالدة. لا، بقي الطفل. بقي الإثم، الشاهد الوحيد الذي لم يقل ما عنده. شاهد المهزلة ودليلها الوحيد الموجع! لو أنه يخرج رأسه الآن يا صديقتي دقائق ليلقي نظرة على هذا العالم الصاخب من حولنا: عالم الكوكاكولا وهي تصرع بيبسي بالحملة الترويجية. عالم الهاتف الجوال والإنترنت وأقراص الليزر والبقر المجنون وحمى ايبولا وجنون الأولمبياد الذي لم يهدأ بعد. العالم الذي يموج من حولنا إرهابيين ومتطرفين، أصوليين وتقدميين، ليبراليين ومتشددين، ومنظمات وأحزاباً وأحلافاً مشبوهة تطبق بكلاليبها علينا من كل جهة وتكتلات اقتصادية. أجل المال. المال، المال، المال. اللغة التي لا يختلف اثنان في فهمها. المال في البحر، على الشطوط، في الشوارع والبنايات الضخمة. المال الذي لا يقف أمامه شيء. بحر هادر يكاد يغمر الذين يملكونه والذين يحلمون به. وأنت وأنا يا خالدة ضائعتان وسط هذا الجنون. نهرب أو ربما كنت أهرب وحدي إلى الشعر والروايات والقصص والأحلام. والآن بعدما أغرقتني الأحلام، بعدما أحرقت الكتب وبعدما التف خاتمه حول إصبعك فذبل عِرق الورد ودهسته الأقدام أقول: لم يبق شيء.

أجل، لم يبقَ شيء. قلتها في مساء خطبتكما ومضيت بعيداً عن العيون الواسعة الكحلاء التي تبرق فوقها ظلال جيفنتشي وايف سان لوران. بعيداً عن الثياب الأنيقة التي تخطر هنا وهناك: المخمل الفرنسي الأسود الذي يكاد يشفُّ عن تفاصيل الجسد تحته، والحرير المطبوع، والشيفون المتهدل والكريب الوقور والدانتيلا. آه، الدانتيلا بورودها وعروقها الصغيرة. أين يصنعون الدانتيلا؟ أوه، لا أعلم. ولا أريد أن أعلم يا خالدة ولا أن أتذكر: الليل والدانتيلا والرمل والبحر وعامراً يسميني بأسماء كثيرة والجنون. الجنون الممضّ. الجنون الآثم. الجنون الذي تنغرز مراياه المهشمة في قلبي الآن.

تركتُ كل ذلك العالم وخرجت إلى جدة. إلى الشوارع والأزقة والبيوت والرواشين. إلى الناس الذين يملئون الشوارع ويتبعثرون على الشواطئ رجالاً ونساءً، شيباً وشباباً صاخباً بقمصان ملونة مفتوحة حتى ما فوق السرة بقليل وسراويل قصيرة وشعور طويلة معقوصة إلى الوراء بربطات منقوشة تماماً كما في المسلسلات المكسيكية المدبلجة. وسيارات مكشوفة واغنيات صاخبة وكاميرات فيديو وطبول ودفوف، وأحياناً كلاب. كلاب في المقاعد الخلفية، كلاب بأطواق جلدية فاخرة تلتف حول أعناقها تسير خلف أحدهم على الشاطئ.

يا الله.

منذ متى بدأ الناس يسيرون بكلابهم في شوارع جدة؟ منذ متى يا خالدة وجدة ترتدي ما ليس لها؟ وتغني ما ليس يطربها؟

(إلهي أعدني إلى براءتي عندليب).

ولن يغضب درويش حين يرى كيف بدلتُ كلماته. في هذه اللحظة يا صديقتي ربما كنت أشبهه ولو قليلاً. أشبهه رغم اختلاف المفقودات.

أأغني؟ لستُ أدري. لكنَّ الغناء أحياناً حالة من حالات الوجع المهلك. أنا إذن موجوعة. والحرائق التي التهمت الكتب في شرفتي اليوم التهمت القلب أيضاً. أكتب لكِ بقلب محروق يا خالدة: لم يبقَ شيء، ولا أريد أكثر من أن تغفري لي. أجل، اغفري لي إذ ربما غفرت لنفسي حينها.

تفاصيل اللوعة

التخلي عنك جريمة، أعرف، لكنَّ بقاءك جريمة أبشع لن يغفرها لي أحد حتى أنت. هل تفهمني يا طفلي الذي لن أراه؟ أودُّ لو ألمسك. أدخل يدي عميقاً وأمر على كتلة اللحم التي لم تكتمل ملامحها بعد. أجذبها قليلاً، أعدل المشيمة كي لا تلتف عليها، ثُمَّ أُقبّلها قبل أن أسلمها للموت. أُقبّل الدم والقلب النابض بعنف وأبكي.

ترى هل لجنين أتم شهره الثاني عينان؟

أريد ألا يكون لك عينان كي لا تعلقهما عليّ حينما اجرؤ على نبذك؛ لن أحتمل عتب البراءة ولن أحتمل السؤال المعلق هناك في الأحداق: لِمَ؟!

لم أختر لك توقيتاً مناسباً. انسقتُ وراء فوضى الحب وعقب الفوضى دائماً يأتي الخراب. بكلمة أخرى الموت. وأنت ـ يا للأسى ـ يجب أن تموت.

رباه. كيف أمكن للواجب أن يكون مريعاً وبشعاً لهذا الحد؟!

حين أغمض عيني لا يبدو الفرق شاسعاً بين ما قبل الإغماضة وما بعدها. أنت وأنا معلقان في وسط هذه الظلمة المفزعة. ودائماً هناك ذاك الهاجس الذي يملأ أذني: (حلم. الأمر ليس أكثر من حلم). لا،

ليس في الأحلام ظلام. أحلام اليقظة والأحلام الوردية وأحلام الصبايا وأحلام الطفولة، حتى أحلام الطفرة. لا ليس حلماً بل هو كابوس مريع ليس فيه غير الظلام وأنا وأنت حولي، معلق مثلي. ربما كنت أمامي أو خلفي وربما بجواري. وسط هذا الظلام كل الأشياء ممكنة حتى أن نكون معلقينِ بأطراف أخطبوط أسود هائل سيهصرنا عما قليل.

آه يا طفلي.

خبرني لِمَ تنبذني وحدي في هذه الظلمة العصية على الإدراك؟ هل أنت غاضب مني؟ أين تقبع وسط هذه الظلمة؟ أمدُّ يدي، أتحسس الأشياء من حولي. رطوبة لزجة مقززة أحياناً ورائحة تشبه رائحة الدم المالح.

أحس بالغثيان، وأفكر في أن أناديك؛ لكني أتذكر أنك بلا اسم. تنفضني الحمى والوجوه تعبر ظلامي. وجوه قديمة لا أدري من أين جاءت. وجوه تعرض عني وجوه تمد لي ألسنتها. وجوه تبصق عليَّ، وجوه تنهرني وأخرى تصفعني. تخيل أن يصفعك وجه!ربما كنت يا طفلي تبعث هذه الوجوه من مرقدها لتعذبني، لكن لِمَ لا تريني وجهك؟ ربما كان هذا أقسى عذاب لي: أن أرى وجهك المكنون؛ تلوعني تفاصيله الصغيرة المنمنمة التي لم تكتمل بعد. أحداق بلا أجفان بلا أهداب. أنف وحشيٌ وبداية فم. سأحدق فيك طويلاً، وسأحبك أكثر من الموت.

قل لي: كيف تكون مصدر عذابي وأنت ثمرة لذتي المجنونة؟ وكيف أكون سبب موتك وحبل الحياة يمتد مني إليك؟ هل يروق لك هذا الجنون الذي تدفعني إليه فقط لأني أردت أن أعبر لك عن حبي بطريقة تعتبرها أنت جريمة؟!

أغرق في الظلام والهمهمات الغريبة المفزعة أحياناً، والأخطبوط الضخم لا يحرك أذرعه. ربما كان ميتاً مثلك ومثلي ومثل أشياء كثيرة حولنا. أناديك لكني لا أسمع صوتي. أريد أن نقف ـ أنت وأنا ـ في منطقة وسطى. ولا أريد أن تعذرني، أريد أن تسمعني. امنحني هذا العزاء: أن تسمعني مرة واحدة أخيرة ثُمَّ كُنْ كالآخرين.

يرشح العرق من أعضائي وكائنات مجهولة باردة تدبُّ فوق جسدي. وأنت؟ أين أنت؟ لِمَ لا تأخذني إلى البحر؟

يا إلهي.

أتكون يا طفلي حاقداً عليَّ؟ إذن، لِمَ تدبُّ مثل هذه الكائنات الهلامية الباردة فوق جسدي؟ لِمَ لا تريني وجهك وتدعني أتحسس طريقي إلى العينين، إلى الأنف، إلى الشفتين أطبع فوقهما قبلة محروقة وأبكي بين يديك وأنا أجرب لوعة أن أختار الحرمان فقط لأنَّ حبك نعيم اختلسته في غفلة من العيون. تعجلته ولم أنتظر أن يطرق بابي.

ظلام. ظلام مريع، والروح طير هيَّض الحزن جناحيه والرائحة ذاتها تزكم أنفي وأنت مازلت تدبُّ فوق جسدي ثقيلاً، بارداً، موجعاً. تتلمس طريقك فوق بطني التي ستلفظك بقسوة. أمر بأناملي فوقها فيتجعد الجلد تحت يدي ملتهباً ويفرُّ الهواء من ظلام ليس فيه غيرنا. تنهشني بلا أسنان وتغرز أظافرك الصغيرة في أعضائي وأنت تدب فوقي رويداً رويداً.

يا الله.

متى تصل كي ننتهي من هذا العذاب؟

لن أقاومك. تعالَ، انهش هذا الجسد المجرح عضواً عضواً. لم يبقَ شيء لم ينهشه الحزن. وغداً أو بعد غدٍ، حين تُدخل امرأة ما يدها كي تجذبك ستزعق الغربان في سماء جدة. جدة التي لن تراك ولن تدب خطاك فوق دروبها.

سأقول للمرأة: تمهلي وأنت تفصلين الروح عن الروح. تريثي وأنت تنزعين طفلي اللائذ بحماي. لاتمزقي اللحم. تمزق الحلم فلِمَ تريدين تشويه وجهه المعذب؟ وترفقي بي؛ لأن طفلي سيخرج من يديك إلى يدي الله لا ليشفع لي ولكن ليلعنني.

(يا وجه الله في السموات العُلى، طفلي غاضب وأنا امرأة خاطئة وأنت بعيد قصيٌّ، فكيف نلتقي؟).

تدب بجسدك الملطخ بالدم وأنا مازلت أبحث عن هواء وسط هذا الظلام اللزج العابق برائحة الخطايا. لِمَ لا تدعني أساعدك؟ هاتِ يدك الصغيرة كي أسلمها رقبتي. هل تفكر في خنقي؟ أم أنك تريد أن تحدق في عيني؟ عما تبحث فيهما؟ انطفأ بريقهما وغابت عنهما الوجوه ولم تعودا أكثر من ثقبين في أنقاض قديمة. حتى أنا لن تجدني لو بحثتَ؛ فتعالَ ودعني آخذ بيدك. تبدو يدك أصغر من أن تطبق على حنجرتي. سأساعدك. سأدعك تقتلني قبل أن أريحك غداً. أجل، أريحك من الظنون والنظرة المستريبة والهمهمة التي ستدور دائماً حولك. يكفي أن تحل بمكان ما حتى تورق شجرة الكلمات الصفراء وتُطلَّ الأفاعي برؤوسها كي تنهش قلبك.

لستُ أدري بأي عين سترمقني المرأة. لن أهتم، وأتمنى ألا أبكي وأنا أراك تفارقني تاركاً في جسدي حُمَّاك وألفة وجودك. ستبدل

السماء ألوانها، وستبدل الكلمات مواقعها وربما بدلتِ الشوارع في طريق العودة بدونك أسماءها.

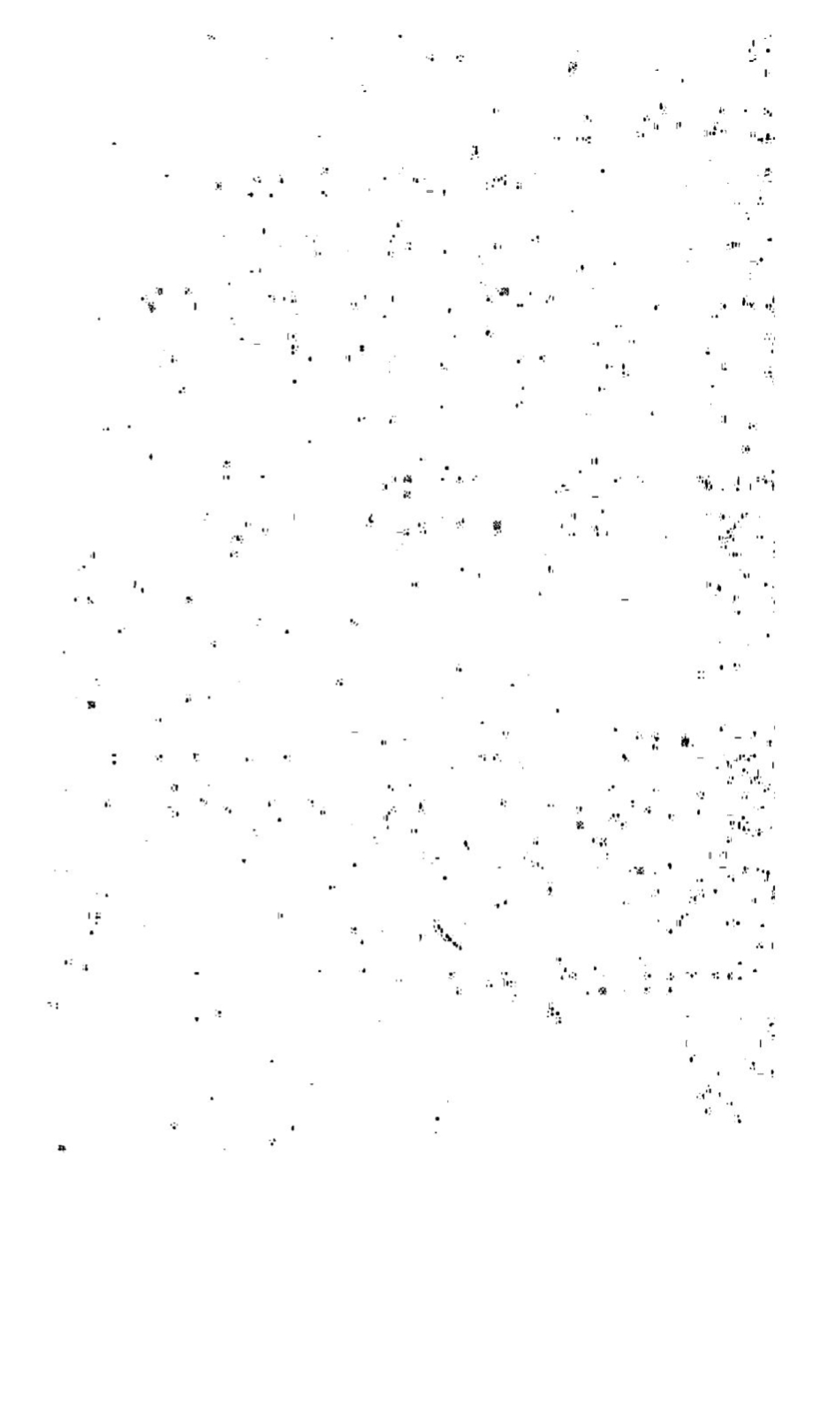
وجدة!

ستكشف لي عن مدينة سرية أخرى في أعماقها. مدينة غامضة مريبة الظلال فيها أكثر من الأضواء. أناسها بلا ملامح أو أنهم يختبئون خلف الأقنعة. بيوتهم جحور مظلمة مثل جحور الفئران، أجل، الفئران التي تتقافز بين صخور الكورنيش تباغتك بعيون صغيرة ملتمعة وفروة رمادية دكناء قبل أن تقفز من صخرة إلى صخرة!

آه.

مدينة للفئران والكلاب وأنا التي خلتها للغيم والعصافير والبحر والنخل والأحبة. وأين هُم الأحبة؟ عامر؟! الآن وأنا استعد لخذلانك يا طفلي المعذب لا أريد أن أتحدث عنه. لن ألعنه، لن أكرهه، كما أني لم أعد قادرة على حبه. سأتركه، وسيلعنه الله، وستلعنه أنت وروحه المشوهة.

تعالَ. لِمَ أنت قصيٌ حتى هذا الحد؟ ولِمَ يحفك الظلام؟ ولِمَ إذ تدب فوق جسدي تسري الحُمى في أعضائي وهذه الرائحة التي لا أعرف كيف أصفها تملأ أنفي؟ تعالَ أقرأ عليك أسفاري وأناشيدي المعذَبة وأوراقي المخربشة. دعني أتلمس الطريق إلى قلبك كلمة كلمة. ربما غنينا معاً، ربما كتبنا معاً وربما توارينا خلف الظنون معاً.



قارة ثامنة تغور

تقف السيارة أمام المنزل. ثَمَّ فضاء رملي يمتلئ بصِبية يلعبون، ملابسهم قذرة وهيئاتهم متعَبة. وإذ أنزل تفارق أشياء كثيرة قلبي، حتى ملامحي تبقى خلفي في السيارة الصغيرة السوداء التي قبع حسن إمام خلف مقودها.

سفائن الغيم الصغيرة تمخر عباب السماء، وفوق رأسي يحلق سرب من الحمام الأبيض. فوق سماء المنزل الذي تحملني الخطى تجاه بابه لم يكن غيم ولم تكن عصافير. لم يكن المنزل المكسو بطبقة بيضاء من الجير الكالح المتآكل في بعض الأنحاء، لم يكن منبوذاً؛ لكنه أيضاً لم يكن محوطاً بالأحبة والصغار والأشجار، وللحظة أحس أني أكرهه.

أضغط على زر الجرس المعلق في أقصى اليسار. يتحرك خيال خلف العين السحرية ثُمَّ ينفتح الباب عن امرأة أربعينية تشي ملامحها بحدة موجعة.

أترك ورائي أضواء النهار الذي سيلفظ عما قليل أنفاسه وأدخل. وعلى امتداد ممر غير مفروش أمضي فيه تترامى ظلال الأشياء من حولي: ستائر، مقاعد مكسورة، وسائد مجمعة، ألعاب متناثرة، أكوام من المجلات والصحف، عجلات مفككة وصناديق خشبية صغيرة.

تك، تك، تك. يتردد صوت ارتطام كعب حذائي بالبلاط

العاري، ويتقَّبض قلبي حين أخال أن هذا البلاط الأبيض المرقش بألوان متباينة ليس أكثر من أرواح صغيرة مكسرة مجرَّحة مهشمة. وأودُّ لو التفتتْ إليّ المرأة بوجه أقل حدة، لكن وجهها جامد مثل صخرة وعيناها مطفأتان تمران على الأشياء مراً سريعاً كأن ليس هناك ما يستحق أن تتأملاه. ياه، لو أنها تسمح لي بتأملها ولو لدقائق معدودات.

«تفضلي».

تشير تجاه غرفة جانبية. أدخل واتجه صوب الأريكة الوحيدة المكسوة بقماشة رمادية حائلة انسلت من أطرافها الخيوط وأجلس. عن يميني ثَمَّ خزانة وحيدة مقفلة مثل سر تقبع في زاوية من المكان ثُمَّ لا شيء عدا المصباح المدلى من سقف الحجرة يبعث نوراً كابياً.

«عن اذنك، دقايق وارجع لك».

تخرج وأبقى في غرفة لم يكن فيها ما هو أشد وحدة مني. أمر بأناملي على بطني فيتجعد قميصي الحريري الأخضر ويبدو صوته غامضاً وسط الصمت. ليس فيه حفيف شجرة في ممر خالٍ ولا وسوسة أساوري إذ أرفع يدي. صوت حزين مبهم لا يوصف.

أضغط أناملي قليلاً لعلني ألمسك ثُمَّ أكفُّ عن الملامسة وأترك كفي مبسوطة فوق بطني. تماماً فوقك لعلها تكون الملامسة الأخيرة أو المحاولة الأخيرة للاعتذار.

«تعالي».

يباغتني صوت المرأة وهي تقف فوق رأسي. أتبعها إلى غرفة قصية. الممر مظلم إلا قليلاً وعلى يسراي ينفتح باب غرفة أرى فيها طفلين يلعبان وأسمع موسيقا صاخبة يبثها تلفاز لا أراه. تفتح الغرفة

الأخرى فتهب عليَّ روائح أحلامي وكوابيسي، وإذ أدخل تعروني برودة الأشياء من حولي: أرض عارية مثل روحي والمرأة توصد الباب، مقعد خشبي بلا مساند، سرير طويل يغطيه قماش أبيض مصفر، وطاولة ميزتُ فوقها مقصاً ومِشرطاً وأنبوباً صغيراً وحقنةً ودواءً ولفافة قطن وشاشاً.

تأخذ عباءتي. تخلع عني ملابسي. تساعدني كي أتمدد على السرير. تدخل يديها في قفازين مطاطيين، وعيناي تجولان في الغرفة بحثاً عن نافذة أو كوة صغيرة؛ أرى من خلالها الغيم والسماء والعصافير فتعودان خائبتين.

تباعد بين رجليَّ وتمد يدها فأسأل:

ـ بدون تخدير؟!

لا ترفع رأسها لتنظر إلي، فقط تهتف ببرود:

* التخدير في عمليات الخياطة بس!

تدخل يدها فيشيح البحر بوجهه عن جدة. أسمع اصطفاق أجنحة مهيضة وهي تهوي في مكان قريب، وألجم صرخاتي والمرأة لا تبدل ملامحها أبداً. لا بد أنها مرت بأناملها على وجهك، لمستك. آه، أين أنت الآن يا طفلي؟ بين يديها أم مازلت عالقاً بي؟

تتناول مقصها لتدخله هو الآخر. انتفض وأنا أقول: لا. تتجاهلني وتدخله. يصعقني الألم وأعرف أنك غاضب، وأعرف أني ملعونة، وأعرف أن أول اللاعنين هذه المرأة التي غرزت مقصها في لحمي لتمزقه.

أعود بظهري إلى الوراء. أتطلع في السقف، ينقشع أمام عيني، يطير بعيداً وتبدو السماء أكثر زرقة، والغيم يتناثر في أرجائها مثل مخرمات الدانتيلا.

دانتيلا!

وارتديت ليلتها دانتيلا سوداء. وكان مفتوناً أو أني كنت غبية. قال: ليكن البحر شاهدنا ولتكن الشموع دليلنا.

كم شمعة أوقدنا؟ شمعة، شمعتين.... عشر شمعات حمل النسيم المالح رائحتها وساعداه ينطويان على خاصرتي والنسمة تطفئ الشموع شمعة إثر شمعة. والظلام يفرد عباءته على الوجود. لم يكن في السماء قمر ونحن وحيدان على شاطئ النخيل. وحيدان إلا من جنون أن نحب فوق الرمل ووسط الموج الذي ترك لأعرافه البيضاء أن تموت تحت جسدينا ونحن ملتحمان في قبلة طويلة مهلكة، وأنوار غامضة تومض من بعيد ثُمَّ يعربد الظلام من جديد؛ وأنا عاجزة عن أن أتبين إلى أي حد انزلقنا، إلى أي حد جرفنا الموج بعيداً عن الحياة كأن لم يكن في الوجود غيرنا. لا بشر، لا أضواء، لا سيارات وصف الشاليهات الخالية الذي لمحته عيناي بدا للحظة مثل حلم والموج يلامس عنقي فيحرقني.

ـ آه.

* تحملي.

أعض على شفتي. تتناول المرأة الأنبوب الصغير وتدخله أيضاً. ألا ما أكثر الأشياء التي دخلت! أغمض عيني ولا أتذكر شيئاً. أفكر فيك وأسأل:

ـ هل أخرجتِه؟

* ليس بعد. سأثبت لك الأنبوب ثُمَّ أحقن فيه هذا الدواء (وأشارت بعينها) بعد ذلك سينزل قِطَعاً وستتألمين.

أهتف وأنا أتطلع في السقف الذي لم ينقشع هذه المرة:

ـ أكثر من هذا الألم؟

كيف لي أن أفكر فيك الآن؟ وإذا كنت مازلت عالقاً بأحشائي وستظل بضعة أيام أخر فكيف سأنام هذه الليلة؟ كنت أريد أن أعود إلى البيت بدونك. أتألم عليك وأبكي ضياعك وضياعي أيضاً. وكنت أريد أن، أن ماذا؟ ماذا بقي كي أريده؟

الغيم. أين الغيم؟ أين البحر؟ وأين جدة عني الآن؟ جدة التي تضج بالشوارع والناس وأضواء النيون والمطاعم الصغيرة والأسواق الضخمة والسيارات الغريبة والسحنات الأغرب.

جدة، هذه الكاذبة اللعوب ما أشد فتنتها! بإمكانها أن تحمل الغيم على أن يمطر بنظرة واحدة. وبإمكانها أن تتعرى للبحر ذات مساء فإذا أقبل لملمت أبناءها إلا الأشقياء وتركت للبحر أن يغضب وأن يبكي وأن يلطم صخر الشاطئ لوعة واحتراقاً.

جدة امرأة مثلي لكنها أذكى مني بكثير. إنها لا تسلم مفاتيحها لأحد ما كاملة. عشاقها كثير وكلهم يحسب أنه يعرفها بيد أنه لا يعرف غير وجه واحد، لم يفتنه غير وجه واحد أعطته جدة مفتاحه ثُمَّ تشاغلت عنه بالآخرين.

أين جدة الآن؟ ألستُ أحد مفاتيحها؟ ألا تريد أن تمنحني لأحد عشاقها كي يحبها لحد الموت، وربما لحد الكتابة؟ ربما كانت جدة لا تحب الكتابة عن تفاصيلها السرية. مثلي مفتونة بالنقاء، لكنها إذ يلطخ قلبها لا تفكر في الموت بل تنبذ عنها ما لطخها وتمضي دون أن تلتفت، تماماً مثلما نبذتني بين يدي امرأة تُدخل أشياءها فيَّ شيئاً شيئاً: المقص والأنبوب والآن تفرغ حقنتها في طرف الأنبوب مثلما يفرغ الألم كائناته في دمي.

أتأوه لحظات. تريح ساقيَّ وتمددهما على السرير ولأول وهلة

يبدو ملمس القماش على باطن ساقيّ المجهدتين مثيراً. أتطلع إليها وهي تخلع قفازيها، لم تتغير ملامحها كثيراً. تتناول منديلاً وتمسح جبيني وأدرك لحظتها أني غرقت في بحر من العرق دون أن أحس. تفرد الغطاء على جسدي:

* يجب أن ترتاحي قليلاً. بدأتِ تنزفين.

بدأ الدم يزفك إلى الموت، والدم بحر مالح بلا مراكب، بلا ضفاف، بلا شطآن قصية مشتهاة. الدم رائحة غريبة تملأ أنفي وأنا أعلق أحداقي على السقف، أعد: واحدة، اثنتين... عشراً. عشر شمعات حملها الموج ونحن متعانقان نتأوه وسط صمت الكون المذهول. أُنشب أظافري في لحم ساعديه وشفتاه تحومان فوق وجهي ورعشة تدفعني لمزيد من الجنون، مزيد من التشبث به تحت جنح الظلام والموج ينحسر رويداً رويداً، وقارب خفر السواحل في المدى يرسل شاراته ثُمَّ يمضي دون أن نحيد عن مكاننا أو نتحرك.

تمد المرأة يدها بكأس من عصير البرتقال وحين أُقرِب الكأس من فمي تفوح رائحة البرتقال وتجتاحني رغبة مبهمة في البكاء على صدر إنسان: أمي، خالدة. ياه، لو عرفتْ خالدة بكل هذا ماذا كانت ستقول أو تفعل؟ وأنت يا طفلي أمازلتَ غاضباً عليَّ؟ لن أشرب العصير. ما الذي سيعوضنيه العصير وأنا أفقدك جزءاً جزءاً؟

يا إلهي، كيف سأنام هذا المساء؟

تلملم المرأة أشياءها الملوثة ببقع الدم. تغيب قليلاً وحين تعود تتطلع إلى الكأس بين يدي، ترق عيناها قليلاً، تقترب، وبمنديل في يدها تمر على الجبين تمسح قطرات العرق التي سالت نهيرات على صدغيَّ ورقبتي وبلا وعي أهتف وأنا أجهش:

- هل سيسامحني؟ لم أُردْ التخلص منه؛ لكن هناك أموراً أقوى

وأهم من رغباتنا. لا أدري كيف أجعله يفهم أني أحبه ولذا ينبغي أن أطرحه بعيداً عني. هل سيفهم؟

واتطلع إلى عينيها. لأول مرة أميز لونهما الخروبي الغامض. كانتا تلتمعان ورغم ذلك ظلتْ شفتاها مطبقتين وهي تتطلع إلى مكان ما خلفي. أمد يدي بالكأس فتتناولها ثُمَّ تُقرِّب مني ملابسي وتمضي دون التفات.

في الممر يبدو صوت حذائي أشد وقعاً: طك، طك، طك. ولا أدري أهو غيظي أم غيظ الأرواح الصغيرة المرصوصة على طول الممر وهي ترسل للسموات لعناتها. أمسح دمعي والباب ينفتح عن صخب الشارع الذي لم أسمعه إلا نادراً وحسن إمام جالس على مقدمة السيارة السوداء يدخن سيجارة بشراهة.

في الفضاء الرملي الذي اجتازه ببطء لم يعد ثَمَّ صبية يلعبون، ولا أدري من أين جاءت تلك الأصوات: نداء مبتور وكلمات بذيئة تناثرت من حولي وصوت أشبه ما يكون بصلصلة حادة، أبواب تُفتح، أخرى توصد وضحكات، ضحكات مجنونة ملأت سمعي والأرض تلفُّ حول نفسها مرة كل ثانية، و.. لعنة الله عليك، وحمامة بيضاء مصوبة تنزف على الرمل ووردة مدهوسة وأخيراً حسن إمام وهو يتلقفني بساعديه:

* سلامتك يا ست صَبا. سلامتك يا ستي. مالك؟ جرالك إيه؟ إنت مش طبيعية النهار ده. وشك مِصفر وعينيك دبلانة.

واستسلم للبكاء وأنا أحس دفء الإنسان بجواري. لا أريد أن أتكلم، فقط أريد أن أبكي. أي شيء يعرفه حسن إمام عن «سته»؟ ومنذ متى لحظ عينيها الذابلتين؟

- أين أنت يا إلهي؟ أين أنت؟ لِمَ تتركني لهذا العالم يتجهمني؟!

عبر زجاج السيارة أتطلع إلى باب المنزل بزرقته الشاحبة. لا عتب يحط على شرفة الفؤاد، لا حزن يرحل من هناك والزرقة تتراجع إلى الوراء. تمضي بعيداً عني وتغدو مجرد تفصيل صغير في صورة كبيرة، والدمع ينساب من الأحداق وحين يتقطر على شفتي يصير مراً.

وأنت يا طفلي؟ مازال الدم يزفك للموت. قالت: (سيزحزحه الدواء. سينزل قِطَعاً ولذا ستتألمين. القطعة التي يذيبها الماء ليست أكثر من دم متجمد، أما القطعة التي لا تذوب في الماء فهي قطعة منه. مع السلامة). و.. طراخ. أغلقت الباب خلفي، حتى الدنيا أغلقت بابها وأشاح حتى وجه الله.

وجدة!

مازالت صاخبة مثلما تركتها قبل أن ألج مغارتها السرية. لوحات النيون المتناثرة، البنايات الشاهقة، الأسواق، المنعطفات والطرق الضيقة الجرداء أحياناً، الشوارع المزدحمة بالأسماء. أسماء في كل مكان. أسماء تقرؤها على اللوحات وفي الخرائط ولا تسمعها في أحاديث الناس. أسماء غريبة، نادرة، مضحكة أحياناً: الدكتور، شجرة القشطة، المواهب، أنشودة الشاعر، أصحاب السمرة، الاطمئنان.

آه.

كل شيء انتهى الآن. انتهى بسرعة كما تنتهي الأعياد وأيام الربيع في جدة. وطفلي منذ هذه اللحظة ليس أكثر من كتل من اللحم المشوه عليّ اختبارها قبل أن أسلمها لأكياس النفايات.

رباه! حتى أنت يا طفلي ستنتهي في المزبلة؟

ظلام، وكل هذي الأضواء عاجزة عن اختراق روحي المطفأة. والناس مثل أشباح تنطبع وجوهها على زجاج السيارة. أشباح هزيلة

راكضة، منهكة. والأسماء تمرق على عجل. كل شيء يمرق على عجل إلا الأسى والألم. ألم الروح وهي تفقد كل شيء وأجمل شيء. هكذا في منتصف الطريق إلى السعادة يتحول بساط الريح إلى أفعى بأربعة أنياب، تلتف حول القلب وتهصره قبل أن تنهش بأنيابها غرفاته الأربع المكتظة بأشياء كثيرة ساذجة ـ أجل الآن أدركت كم هي ساذجة ـ الأحلام والكتابة والأعذار والأكاذيب والأوراق التي تملأ الأدراج دون أن أجد وقتاً لترتيبها، تعوم في فوضاها. دائماً هناك هذه الفوضى. دائما لها هذا الحضور المدهش في الزوايا والأركان وحتى في العقول!

لم يبقَ في غرفات القلب غير الظلام ووحشة تشبه وحشة القبور. جدة الآن ليست أكثر من قبر رحيب ومع ذلك يكاد ينطبق على ضلوعي. جدة قارة ثامنة تغور في ملح الدمع قليلاً قليلاً بكل تفاصيلها، وأسمائها وأُناسها ورمالها ومبانيها. تغور وأنا في وسط سيارة سوداء صغيرة تنهب شارع الكورنيش الطويل أغور معها قارة أخرى مجهولة لم يكتشفها غير ديك نقر قلبها فتسرب الماء وغارت الرمال وأشجار الجوز وتكعيبات اللبلاب المخضرة أبداً والنوارس والكتب والأوراق والناس الذين بنوا بيوتهم على تخومها وغنوا كما يغني البحارة والصيادون على أنغام السِّمسمية:

(أنا وحبيبي في جنينه

والورد خيم علينا).

كل شيء انتهى وغار في الأعماق السحيقة حتى الفردوس المفقود. الفراديس في السماء وليست على الأرض. الفراديس للأنبياء وليست للخاطئين. الفراديس تفرُّ مني. كل شيء الآن يفر، ينتهي،

يتلاشى، يذوب كما تذوب المناديل الورقية في الماء، كما تذوب الروح في الدمع والدمع ماء.

أغمض عيني ولكن ما الفرق؟ في الظلام ربما تكون الأشياء أبشع وأكثر إثارة. والسيارة مثل فرس بري ترمح وترمح. ليتها تكبو وينتهي الموضوع.

(خيَّبك الله يا صَبا. لا تجيدين غير الأمنيات!).

وهل هناك أكثر من هذه الخيبة؟!

الدم. لم يبقَ غير الدم ينز ببطء. الدم مسك الشهداء ولون الورد. منذ زمن ونحن يا طفلي لا نتفاهم بغير هذه اللغة: الدم!

العالم من حولنا أيضاً غدا عاجزاً عن التفاهم بغير هذه اللغة. وهانحن ذا نصل إلى طريق مسدود، وليس هناك من لوحة تشير إلى طريق ثانٍ. في آخر الأمر، إلى أين أريد أن أصل؟

الطرق في جدة مفتوحة إلا على الفرار مما أنا فيه. الطرق في جدة واسعة وأحياناً تضيق، تختنق أمام البحر والمراكز التجارية وأمامي الآن وأنا أغور في لجة من الضياع وحدي. أرسب في القاع ولا يبقى ورائي غير فقاعات تتصاعد متلاحقة فوق سطح الماء ثُمَّ تتلاشى هي أيضاً: بلوب، بب، لوب لوب، بلوب، بب، لوب لوب، بوب، بلوب.......

سقوط الوردة

الدانتيلا والشموع والفردوس المفقود. الدانتيلا! كيف تبدأ مراسيم الرحيل بغير الدانتيلا؟ الدانتيلا والخيبة والظلام والبحر. الفردوس المفقود من ورائي والبحر من أمامي (وأنا أترنح في آخر سهل الحزن. خطوة أخرى في هذا الاتجاه وأقع عن الكرة الأرضية).

ينوس ضوء الشموع وسط الظلام. وللحظة تبدو ألوان الزهور الحمراء المتناثرة على فستاني صدئة. آه، لابد أن الدم على ملابسي الداخلية صار صدئاً هو الآخر.

خبرني يا طفلي: إلى أين حملك الدم؟ كم قطعة فارقتك وكم قطعة بقيت؟ قل لي: هل مازلت غاضباً عليَّ؟ دعني ألمسك، مرة واحدة. مرة واحدة فقط وبعدها لا شيء.

لم أخذلك ولم أخنك. نزعتُ الأنبوب الذي زرعته يداها. تقطَّعت أنفاسي ألماً ولم أتراجع؛ لا من أجل أن أموت ولكن من أجل ألا تموت وحدك يا طفلي.

تنوس الشموع بخفوت، لكن ثلاث شمعات لا تشبه عشر شمعات. وثوب الدانتيلا يرتاح على ركبتي. تكاد معالم تخريمه لا تبين: المنمنمات الصغيرة والورود والعروق والغصون المتعرجة المتناثرة هنا وهناك و... (أحبكِ) (يا الله؛ ما أجمل المرأة التي أحبها! حتى

الورود نَمَتْ على أكتافها وسواعدها) (تعالي، دعيني ألمس جبينك. أنت الآن أجمل من أي مرة مضت) (ما أجمل رائحة المرأة التي أحب! باركها يا الله) (الماء يغمرنا، ورغم ذلك سأحبكِ بطريقتي الخاصة) (صَبا، صَبا، صَبااا، وحِيَاةْ ربي أَحُبكْ).

ما أتعس صَبا!

أكوِّم الثوب أمامي على الرمل، ثُمّ أُقَرب له إحدى الشمعات كي تندلع حرائق الحب. يومض اللهب بغتة وتختلط رائحة القماش المحترق برائحة البحر. تحترق الورود وتحترق القُبل والأكاذيب التي تشابكت حول قلبي مثل خيوط الدانتيلا.

هل يحترق الحب؟ في آخر الأمر ماذا عرفت من الحب أو عنه؟ إلى أين حملني وفي أي منعطف أضعته؟ وعمَ كنت أبحث وأنا استسلم لغوايته المهلكة؟ وهل يكون الحب مرادفاً للبحث؟ والبحث عمَ؟ الحب مصالحة مع الحياة. لا، لا. هذا ليس تعريفاً جامعاً مانعاً كما يقول المناطقة. الحب إذن، مواجهة مع اليأس. لا، الحب هروب. أجل بالنسبة لي هروب من تفاصيل تسيجني بها أمي أحياناً ولا تغفر لي تجاوزها. تعليل لأشياء كثيرة لم تكن أمي تفهمها ولم تكن مستعدة للتسامح معها: أن أتسكع أحياناً في دروب جدة وأسواقها الضخمة. أن أتناول مظلتي بسرعة عندما يهمي المطر وأنادي حسن إمام كي يحملني إلى المطر.

حسن إمام!

المهندس المعماري الذي ترك المنصورة ليعمل سائقاً هنا. يدخن بشراهة لا توازي شراهة عينيه وهو يتأملني في المرآة المعلقة بسقف السيارة. ولو أني واربت له باباً ذات مرة لغيَّر خريطة جدة وقال

للفارسي: (أنت لا تفهم في البناء والتخطيط شيئاً). ولمنح الشوارع المثقلة بأسماء لا تلامس قلوب الناس أسماء أخرى يثير ذكرها حنيناً لا يموت!

حسن إمام الذي لا ينادي أحداً سواي بـ (ستي). حتى أمي يناديها (الهانم الكبيرة). أقول له:

- عارف يا حسن، نفسي ازور إسكندرية. جميلة مش كدا برضه؟

* والله يا ستي مش أجمل منك!ويعني إيه هي إسكندرية؟ بحر وشوارع وبيوت ونوة شديدة في الشتاء. لكن إنت يا ست صَبا، إنت حاجة تانية. حاجة ما تِتْقالش ولا تِتْوصف. وحياة المرسي أبو العباس إنت أجمل مِ الدنيا كلها!

حسن إمام. لماذا انحرفت بوصلة القلب بعيداً؟ ولو انحرفت تجاهه بماذا كنت سأتهم؟!

أرمق النار التي شبت في الثوب وهي تخمد قليلاً قليلاً. هبة، هبتان وينتهي الموضوع وأبقى أنا وشمعة وحيدة لم تنطفئ بعد. أحملها وأداري لهبها؛ كي لا تطفئه النسمة وكي تدلني عليَّ وسط العتمة. أجول بطرفي في الأنحاء من حولي قبل أن أمضي باتجاه الفردوس المفقود.

ماذا بقي لي هنا؟

أنفض الرمل العالق بثوبي وتختلط في أنفي رائحة البحر الساكن ورائحة الشمعة بين يدي. ساعات قليلة ويغمر الموج كل الخطايا ولا يبقى على الأرض من أثر. أعلق أحداقي على حيطان الفردوس، ويبدو على البعد وحيداً مبهماً قصياً تحملني الخطى إليه مملوءة بالبحر وبحفيف الشجيرات المزروعة هنا وهناك.

أقف على العتبة الصغيرة. تترنح الأشياء من حولي وتجئ حتى أصغر تفاصيل الحزن وثَمّ بعوضة تطنُّ حول أذني، والباب الخشبي الأبيض المزين بحليات ذهبية تومض تحت ضوء الشمعة المتمايل يقف أمامي مثل سر طوى الكون جناحيه عليه. أفتحه فتهب رائحة الذكريات وتصطخب الكلمات التي قلناها في كل مرة؛ حتى الغضب كلماته طيور مجنونة عمياء تماماً كالحب تصطدم بالجدران ولا ترعوي.

شمعة واحدة لا تبدو كافية لتبديد هذه الظلمة الحادة. بالنسبة لي لن يكون مُهماً أن تتمايز تفاصيل الكون من حولي. سأعرف البحر وسأعرف الرمل وسأعرف دموعي وسأعرفه ذاك الذي لم أكرهه ولم أغفر له وسأعرف الأوراق والأقلام والزهور الجافة على المنضدة الصغيرة والممرات المعتمة والفراش الخالي وجهاز التسجيل و.. سأعرفك يا طفلي وسنتشارك الظلمة العتية واللوعة.

أوصد الباب، وتنسكب أصوات الكون: البحر والأشجار والنوافذ التي تئز بخفوت قبل أن ترتفع أطراف ستائرها الشفافة مع النسمة الحارة الرطبة.

ها أنذي وحدي أرتب طقوسي الأخيرة. أُثبت الشمعة على الطاولة، ثُم أتمدد على الأريكة وأرقب الستائر التي تروح وتجئ مثل أشباح. أعد مرات غدوها ورواحها: واحدة، اثنتين، . . .، عشراً.

عشر شمعات انطفأت وانسربت في البحر الهادر ونحن متشبثان بالماء والرمل في انتظار أن ينفخ الله فينا من روحه أو هكذا ظننت ورذاذ الماء المالح يتناثر على وجهي، والرمل تحت جسدينا برية بكر ننقش فوقها رموز حضارة جديدة صاغها الحب.

إلى أي حدٍّ صرنا الطين ليلتها وإلى أي حدٍّ صار الطين نحن؟ آه،

لو أني فتحت عيني ليلتها وتطلعت في وجهه لعرفت أني سأكون وحدي الليلة، ولعرفت أن الحضارة التي تصاغ في الظلام ليست أكثر من مؤامرة على الحب والحياة والناس وعلى نفسي أيضاً.

شمعة وحيدة على الطاولة أمامي يتجمد ذَوْبها على جوانبها مثل دمعة. ألا ما أكثر المبكيات! لم يحتفِ أحد بالبكاء مثلما احتفى العرب، وما أنا فيه مبكٍ بل مخزٍ. كان يجب عليّ أن أخرج إليهم في الشوارع الأنيقة النظيفة. استصرخهم، أتشبث بأطراف ثيابهم كي يلتفتوا إليّ ويحسوا بي.

(واعرباه. واعرباه. أدركوني، أغيثوني. غرناطة جديدة ستهوي، قدس أخرى ستسلب. التفتوا إليّ، أغيثوني. لا تضيعوني).

(إش بها هادي اتجننتْ؟!) (ول، ول. فين أهلها؟ مِفلّتِينَها كِدا في الشارع ليه؟!) (والله ما أدري يا خُويا!) (أَخْصُروكم منها. واحدة ملعونة جايه تشبه نفسها بالأندلس والقدس. تفوه. إش جاب لجاب يا بنت الـ...، روحي أرمي بلاويك على غيرنا) (هادا إللي كسبناه من الدش. لعنة الله على اليهود، بناتنا اتفلتوا في الشوارع يصيحوا: واعرباه، وازفتاه، وامدري إشْكلو؟). (لا وانْت الصادق. هذا إللي كسبناه من تعليمهن. علّم بنتك ولاّ اختك عشان تطلع بكره في الشارع تنادي: واعرباه. وِش يدريك ساعتها عرباه هذا ولد من؟!).

(وي يا ندامتي. ما دريتي؟ يقولوا: بنت زينب عواد اتجننت. خرجت تصيح في الشارع وشقت حوايجها).

(يا عيني أمها أغمي عليها من الصدمة. قال تبغى تحرر القدس والتانية الأندلس ما أدري إش قلعتها؟) (سألت البنات عنها قالوا: اسمها

دحين أسبانيا. لمّا كانت تحت يد العرب كان اسمها الأندلس. يعني شي مرت عليه دهور جايه بنت زينب بِرَجِعو دحين. الحمد لله على نعمة العقل والدين).

(أقولك أنا من زمان كنت أقول البنت هادي ما هي طبيعية. فيها شي غريب. أتاريه جُنَانَها بيلمع في عيونها) (آخرة الكتب يا اخْتِي جنان. لا وأزيدك كمان، بنت عديلة قاعدة أمس تدافع عن جنانها وتقولك «هادا موقف شجاع ما في أحد راح يفهمه». يا اختي هو الجنان يبغالو فهم كمان؟) (الحمد لله بس إللي ما شالتلها سيف ولاّ سكينة لزوم تحرير القدس وطعنتلها واحد في الشارع وجابت لأهلها نكبة).

(ربك عالم بالولية الضعيفة: زينب. الله يساعدها. المصيبة في الضنى تعمي البصر والبصيرة) (نسمع ونسلم يا اختي. الله يستر علينا وعلى ولايا المسلمين. نسمع ونسلم).

آه.

الدانتيلا والشموع والفردوس المفقود. ذهبت الدانتيلا وبقيت شمعة والفردوس المفقود.

الفردوس المفقود؟! من أين جاء هذا الاسم؟ من أي كتاب التقطته؟ في أي قصة قرأته؟ (الموجز في تاريخ الأدب الإنجليزي، ايفور ايفانز.. في الحرب الأهلية ساند ملتون الجانب الذي هزم في آخر الأمر. وكانت خيبة الأمل هي أكثر ما مزقه حين أيقظت فيه قضية كرومويل آمالاً جمة لمستقبل الإنسانية. وقد وسمت لمحة مأساوية أواخر سنينه حين عاد أعمى، مشرداً، عجوزاً، محطم الأمل ليؤلف أعماله الشعرية العظيمة التي لازمت مخيلته منذ شبابه: الفردوس

المفقود الملحمة التي نُشرت في ١٦٦٧م) ثُم غدت فيما بعد رمزاً لكل حلم ينهار. الفردوس المفقود. آدم وحواء والشيطان يُسَاءل نفسه قرب جنة عدن:

(أي شقي أنا!في أي اتجاه ينبغي أن أُحَلِّق
غاضباً بلا حدّ، ويائساً بلا نهاية؟
وفي أي اتجاه حلَّقت ثَمَّ جحيم، أنا ذاتي جحيم،
. . . . . .
ألم تبقَ فسحة للتوبة أو الغفران؟
. . . . . .
إذن وداعاً للأمل، ومع الأمل وداعاً للخوف،
وداعاً للندم!).

القاعات الخالية والصبايا والممرات المسفلتة والجامعة والأدب الإنجليزي. آه، ماذا بقي من الأدب الإنجليزي؟ الوريقات والكتب، الروايات والمسرحيات والشعر والعصر الفكتوري والكلاسيكية الجديدة وسير فيليب سيدني وجون درايدن وتشوسر وشكسبير وعطيل وت. س. إليوت وفرجينيا وولف و (غرفة يعقوب) التي قرأت عنها وظللت ليلة كاملة أفكر بسرطان البحر الموضوع في دلو في تلك الغرفة، كلما تسلق جانب الدلو عاد فسقط. مثلي الآن؟!

لا. لن أتسلق جانب الحزن. ها أنذي أغوص قريباً من القاع وحيدة إلا من الذكريات ومنك يا طفلي الذي لم أمنحه اسماً، ومن هذه التفاصيل الغائبة التي جلبها الفردوس المفقود. ماذا بقي منها الآن؟ تركتها منذ عامين عند أبواب الجامعة. تركت كل تلك الأسماء

والتواريخ والأحداث وظننت أن لن أذكرها وهاهي تنسل لتملأ أروقة الذاكرة.

يا الله.

الفردوس المفقود وآدم وحواء والشيطان. دائماً آدم وحواء، حتى الكون بدأ بآدم وحواء وشيطان وفردوس مفقود.

ولا أتذكر كيف تفتق الاسم في ذهني. هتفت في جذل:

ـ وجدتها، (Paradise Lost) الفردوس المفقود.

على الطرف الآخر من الهاتف ضحكت خالدة:

* ألم أقل لك: ستموتين وأنت تحلمين؟ الفردوس المفقود؟ ما أعجب هذا الاسم!

ولم تك تدري أن عامراً كان معي في الفردوس المفقود في اليوم السابق، وأنه قبّلني بجنون وهو يضع حول رقبتي سلسلة في طرفها مفتاح الفردوس وقال:

ـ مكان لنا دائماً، ولك ولخالدة أحياناً.

لم تدرِ خالدة شيئاً. ليتها عرفت، وليتها تسامحني أو على الأقل تفهمني.

قلت: (يجب أن أبحث له عن اسم. أجل يجب أن نسمي هذا العش الذي سيجمعنا). ولم أرَ بشراً مهووساً بتسمية الأشياء من حوله مثلي، حتى الناس كنت أمنحهم أسماء غير أسمائهم. سميت غرفتي غابة وسميتها أحياناً مفازة. سميت أقلامي الأثيرة فقط: يباباً، مغامراً، نورساً. سميت مصباحاً صغيراً شاركني سهري E. T. . كان له شكل E. T، رأس دائري مبعوج ورقبة طويلة وبراءة مذهلة. وأمام نافذتي ثَمَّ

نخلتان طويلتان جداً تكاد إحداهما أن تلتصق بالأخرى أسميتهما: حسن ونعيمة. ووحده عامر ظلَّ بمنأى عن لعبة الأسماء حتى حين. عرفته عامراً وأحببته عامراً واكتشفته خراباً في وقت لا يجدي فيه اكتشاف.

الفردوس المفقود!

كان إذن مفقوداً منذ الأبد. ما أتعس قلبي! هذا النبي الصغير الذي أرهقته بنزقي وجنوني. أعرف أني خربشته وانتهكت أحلامه وبراءته كثيراً؛ الفردوس المفقود وعامر والحب ـ حبل الأكاذيب الذي كاد يخنقه ـ والجنون والأنبوب والألم والنزيف. آه، النزيف، الدم المالح وتلك الرائحة وطفلي الذي دبَّ فوق جسدي، وغرز أظافره في رقبتي.

طفلي الآن نائم. غافٍ بين أحشائي. أظن أنه لم يعد يلعنني، على الأقل لم يعد ينبذني. أمر بأناملي على بطني، وأتطلع إلى شمعة أمامي أكل اللهب أكثر من نصفها وأنا مازلت ممدة على الأريكة أترك للأشياء حرية أن تفتح أبواب القلب فتعبر أو تقف. ومن مكاني أسمع صوت البحر، وأفكر في جدة.

يا الله.

كأن بيني وبينها دهراً. الآن، في هذه اللحظة بالذات، أحس أن جزءاً من قلبي يبتر. جزء فيه أحلام وأيام وأناس وبيوت ومنعطفات وشوارع وشواطئ كلها تفارق القلب أو أنه يفارقها. كلها تباعدت كأن لم تكن له يوماً. شعور يشبه شعور متفرج يجلس أمام شاشة السينما، يتابع الأحداث والوجوه بشغف ثُم يترك القاعة وغداً حين تعبره الذكرى ستومض أمام عينيه الشاشة الضخمة والمقاعد والظلام والرؤوس التي تتحرك هنا وهناك ـ إذا كان قد اختار مقعداً خلفياً ـ والوجوه التي تتوالى على الشاشة ملونة كبيرة قريبة مهما بَعُدَتْ: سعاد

حسني، عادل إمام، حسين فهمي، أحمد زكي، يسرا، عبلة كامل، وأسماء أخرى كثيرة ستمر بمخيلته دون أن تلامس قلبه؛ مثلي تماماً في هذه اللحظة إذ تركزت كل تفاصيلي ومشاعري في (هنا والآن)، وتراجع كل ما عدا ذلك للوراء أو بَهُتَ إحساسي به.

جدة!

آه، ذهبت أيام وجاءت أُخَر وغابت أشياء كثيرة إلا جدة، فإنها غيَّرت ملامحها وظلت. تمددت شمالاً وجنوباً وظلت. وفي كل مرة كانت تزيح طرفاً من قميصها ـ البحر ـ ويتبدى جسدها الطري المالح المخبوء تحت البحر مثل حورية فقط كي تبقى. يهمها جداً أن تبقى حتى لو نبذت قميصها بعيداً واستلقت عارية أمام بصر الكون وسمعه.

مدينة تنسى أحزانها سريعاً. كل شيء فيها يمر بسرعة، حتى البشر تعلموا أن يعبروا سريعاً دون أن يلتفتوا حتى لها هي جدة التي غيّرت وجهها من أجلهم. ملأت شوارعها بـ (مكدونالدز) و (بيتزا هت) و (البيك) و (هارديز)؛ فأتخموا بطونهم ثُمَّ ناموا ولم يحلموا بها.

لكن، مالي ولهذه التفاصيل الآن؟ فلتذهب بعيداً، فلتَغُرْ في أعماق هذا البحر الذي يصلني صوته خافتاً وسط هذه العزلة. ليس هذا أوان التفكير. أريد أن أغمض عيني ثُمَّ أفتحهما وأنا مغسولة بالنسيان.

يا الله.

لِمَ يعاندني النسيان؟ لِمَ يبدل ثيابه ويفر تاركاً لي ذاكرة مدججة بلحظات حادة مزقت القلب ومزقتني؟ الدانتيلا والشموع والفردوس المفقود. احترقت الدانتيلا وانطفأت الشمعة وغرق الفردوس المفقود في الظلام. انتصر الشيطان أخيراً. سلب الفردوس من آدم وحواء.

أسمعه الآن يضحك قرب النافذة. يضحك ويضحك ويضحك وأنا ممددة على الأريكة، تزعجني رطوبة الدم على ثيابي وأكاد أشم رائحته.

لكن الدم ينزف من جروحي هذه المرة ولا يأخذك بعيداً عني يا طفلي. أليس غريباً أن يكون الدم هو اللغة الوحيدة التي نتخاطب بها معاً؟ غاب الدم فعرفت أنك نَبَتَّ في أحشائي. شهران وأنا أنتظر أن يبرئني الدم من تهمة حملك، لكن الدم غائب وأنت حاضر، وحين بدأ الدم بالحضور أوشكت أن تغيب. ألا يمكن أن تحضرا معاً أو تغيبا معاً؟!

وهذه الحمى التي تنفضني ما الذي تريده من هذا الجسد المنهك المجروح؟ يرشح العرق عبر الثوب الذي غابت زهوره الصغيرة خلف الظلام، وإذ تمر النسمة يجتاحني ألم غريب. آه، الحمى تجعل حتى مرور النسمة مؤلماً.

أفتح أزرة الفستان. أربعة أزرة تمتد من الرقبة حتى منتصف الصدر تعالجها أناملي وتفتحها كي لا أختنق وسط هذا الظلام الذي بدأ يثيرني وعيناي مثل جمرتين لم يطفئهما الدمع؛ أو مثل نافذتين شرَّعهما الحزن لوجوه كثيرة بدأت تطلُّ عليَّ. وجوه جامدة باكية حزينة مشفقة شامتة. وجوه تشيح عني أخرى أشيح عنها. قل لي يا طفلي: لِمَ لا يطل وجهك الآن؟ لِمَ لا تأتي الآن، تخرج من العتمة كي تستلقي بجواري وننشد معاً نشيدنا الأخير؟ أريد أن أجرب ألم خروجك لا ألم إخراجك.

فيما يخصك وحدك، كانت الفوضى قد ضربت أطنابها في كل شيء. فوضى! لعل الحب ليس أكثر من فوضى تحل ببوصلة القلب

فيضيع معها كل شيء. فوضى من الارتباكات الصغيرة والهموم والأشواق والجنون، وفي آخر الأمر ينبت الندم. يعرّش فوق القلب مثل لبلابة.

كنت وحدي أحب، وها أنذي وحدي أندم. تئز النافذة قليلاً فيبعث صوتها كآبة حادة، وتنحدر دمعة حارقة، أحس بها وهي تهمي سريعاً قبل أن تستقر في صوان أذني اليمنى؛ والألم عقرب أطبق كلابتيه بين رجليَّ ولم يغفُ، ولا شيء غير الظلام. الظلام، الظلام، الظلام.

وكنت أهتف:

ـ أطفئ هذا المصباح.

وكان إبريل كرمة تدلت عناقيدها غضباً فوق جنوب لبنان. وكنت هاربة من نشرات الأخبار، من قانا، من جنون الدم إلى جنون الحب. في آخر الأمر قد يكون الحب معبراً إلى الدم.

* مالك ساهمة؟

ـ أفكر بالموت والحياة. أتظن أنْ ثَمَّ فارقاً بينهما؟

* لابد أن يكون بينهما فارق. لكن، ما الذي أتى بالموت الآن؟ تعالي. الموت للآخرين وليس لنا.

ـ أجل الموت لإسحاق رابين. مات، اغتالوه. ها ها ها، أحسن! الموت لشمعون بيريز. لم يمت. خسارة. الموت لجولدا مائير. ماتت، ها ها ها، في جهنم وبئس المصير. ألا تشبه حنان عشراوي جولدا مائير؟ لم ترَ جولدا؟ خسارة. لا يهم. الموت لايريل شارون. لم يمت، خسارة! الموت ليهود الشتات. ها ها ها. لم يعودوا

كذلك. صار الفلسطينيون فلسطينيي الشتات. ها ها ها. يا سِيدي الأيام دُوَل، والدنيا كدا يوم لك ويوم عليك. ها ها ها. شتات؟ مصر شتات؟! السعودية شتات؟! الكويت شتات؟ لا، لا. بعد أغسطس ٩٠ لم تعد الكويت شتاتاً لأحد. ها ها ها، إِضحكْ، هذه هي المضحكات المبكيات. اضحك أنت ودعِ البكاء لي. أطفئ هذا المصباح وتعالَ نجابه اليهود بالحب. تعالَ نفجر عناقيدنا حباً. أجل، اقترب. ضع يدك هنا. أنا لا أراك ولكني أحس بك. خذني بعيداً حيث نمدُّ للعدو ألسنتنا ونقول له: مازلنا قادرين على أن نحيا ونحب رغم الموت، رغم العناقيد، رغم السلام. أجل، أجل، أجل.

* هم م م، أنا لا أفهمك أحياناً ولكني أحب ما نفعله. أحبكِ حين تنادينني. هل تكتبين مثل هذا الكلام في قصصك؟

ـ ليس مُهماً أن تفهمني. وليس مهماً أن تعرف ماذا أكتب، المهم أن، أن، آه...

يا إلهي.

هذا العلم الذي بلغ أجواز الفضاء ألم يكتشف ما ينتزع هذه الذاكرة المقيتة مني أو ينتزعني منها؟ لو فتحت هذا الصندوق المقفل ماذا كنت سأجد وسط تلك التلافيف والتعرجات الغريبة مثل ديدان التفت وتبعجت حول نفسها؟! ماذا كنت سأجد داخل هذا الدماغ؟

تلافيف مزدحمة بالوجوه والبيوت والشوارع والأسماء والكتب والمحادثات الهاتفية ومئات القصاصات والمقالات وزجاجات العطر والفساتين والقمصان المطرزة وأشكال من الغيوم. صوت المطر أيضاً هناك والشواطئ الرملية ووردة وحيدة تدلت عبر سياج الشرفة.

يا إلهي.

يجب أن أتذكر ما الذي أتى بها الآن هنا؟ أأكون أنا التي حملتها؟ ولكن، كيف تركتها تتدلى عبر السياج هكذا. آه، الصداع يكاد يفتك برأسي، لكن يجب أن أركز ذهني على الوردة. قرمزية إلى حدٍّ مريع وحيدة على سياج الشرفة والشمس تغسلها بالضوء وهي تدثر السياج بالظل الشاحب، ولكن أين أنا؟ لماذا أغيب عنها؟ لماذا أتركها للوحدة؟

يا إلهي. ما أشد وحدتها وسط التفاصيل التي تملأ الذاكرة! أرقام الهواتف ووسائد ملونة على طرف السرير وقميص نوم أزرق بحري وصورة صغيرة لفيروز ومجلات كثيرة: آخر ساعة، العربي، نادي القصة، صباح الخير، الوسط، المجلة، ...، ...، كيف تصمد وردة وسط زيف الكلام؟

ماذا لو فككت التلافيف وأعدت ترتيبها من جديد؟ إعادة صياغة الواقع كما يقول كتاب القصة والنقاد والمنظرون؟ لكني لن أعيد صياغة واقعي، بل سأعيد إنتاج شرور هذا الواقع. (ها ها ها، حلوة إعادة إنتاج شرور الواقع هادي! من فين جبتيها يا ست صَبا؟ أكيد لقطتيها من مجلة ولاً جريدة ولاً كتاب وجايةْ تتفلسفي علينا بيها. مو كفاية الشر إللي إحنا فيه كمان تبغي تعيدي انتاجه؟ صحيح، أهل العقول في راحة!).

وإذا أعدتُ إنتاج هذا الكون المبعثر من التفاصيل ماذا سأفعل بالوردة؟ هل قال أنسي الحاج: (ماذا صنعت بالذهب؟ ماذا فعلت بالوردة؟) أوه، من أين جاء أنسي الحاج؟ لابد أنه كان موجوداً وسط هؤلاء الذين يملئون دماغي. (ما أكثر تداعياتك يا صَبا!).

الوردة. الوردة، يجب ألا أذهب بعيداً عن الوردة. إن غفلت عنها قليلاً سأفقدها وما أكثر ما فقدت!لكن الوردة عصية ولا تريد أن تبوح بأسرارها. من جاء بها؟ من ألقاها هكذا على سياج الشرفة كي تعذبني وحدتها؟ هل ظلتْ على السياج كثيراً أم أنها سقطت؟

(أنت أيضاً وبمعنىً من المعاني يا صَبا عبد العزيز سقطت) (ساقطة، ساقطة. كيف سمحت لنفسك بأن تقفي أمامي الآن؟ ألم تري صورتك ضمن صور الساقطات الموضوعة في الردهة الخارجية، هذا مكان محترم يا هانم.) (انفوها من الأرض. انفوها من جدة. أخرجوها فإن البحر سينقض علينا فيغرقنا إن لم نخرجها.) (لعنة الله عليها. إنها تصر على إثمها، ارجموها.) (وإذا ماتت، هل نصلي عليها وندفنها في مدافن المسلمين؟) (فليلعنها الله، كيف نصلي على فاجرة مثلها وندفنها مع المسلمين. سنرميها في البحر.) (لتأكلها الحيتان؟) (ليأكلها إبليس لو أراد ـ وأظنه سيعف عن ذلك ـ المهم أن نتخلص منها.) (لكن جثتها ستلوث البحر وسيُغرقنا أيضاً) (أفٍ، عليها لعنة الله والناس أجمعين. ألم أقل لكم إنها وباء حلَّ بنا؟ سنحملها إلى جبل موفيا ونرميها هناك، أو لنرمِها فوق جبل بريمان؛ ستتخطفها الطير ونرتاح.) (الجبال كثيرة، لكني أرى أن ندفنها؛ سيريحنا الدود من أمرها.) (أجل، أجل، ندفنها في الصحراء كي تعوي الذئاب عند قبرها كل حين فتفزعها. ها ها ها. جميل، جميل. إني أحب ذلك. ها ها ها.) (ما الذي يضحكك؟) (منذ زمن لم أنجز شيئاً ذا قيمة وهانحن الآن بصدد القضاء على شر يمشي على قدمين. إنجاز، إنجاز يا أخي. أنت لا تعلم أنك ستدفن رمزاً للشرور والآثام.)

(ها ها ها، ألم أقل لك يا صَبا؟ الحب مزبلة وأنا ديكها

المؤذن.) (عامر؟ ما الذي أتى بك؟) (ألم أقل لك يا صَبا؟ الحب مزبلة وأنا ديكها المؤذن. ها ها ها) (لِمَ لا ترد عليّ؟ ومن هذه التي معك؟ خالدة؟ رباه، ما كان يجب أن تأتي. لا تتطلعي إليّ بهاتين العينين. تعبت من البكاء؛ فلا تدفعيني لمزيد منه. هل جئتِ ترجمينني أنت أيضاً؟) (ها ها ها، ألم أقل لك يا صَبا؟ الحب مزبلة وأنا ديكـــها المؤذن) (اخرس أنت. خالدة، لِمَ لا تردين عليّ؟ لِمَ تضعين يدك في يد هذا التافه؟ انظري إليه، إنه مثل ببغاء تردد مالا تفهمه. لا أدري من أين التقط هذه الجملة وجاء يزعجني بها؟ هل أنت غاضبة مني؟) (ها ها ها. ألم أقل لك يا صَبا. . .) (اصمت أنت، ولا تنطقْ باسمي. خالدة، بالله عليك رُدي عليّ. لا تقفي هكذا صامتة) (صَبا، أنا، أنا حامل) (ها ها ها، ها ها ها. ماذا؟ حامل؟ فعلها ديك المزابل إذن. ها ها ها. أمر طريف، أمر رائع. تخيلي أن ابني وابنك أَخوَانِ. ها ها ها. ولكن متى عرفتِ أنك حبلى. البارحة تركتكما مخطوبين. أنت كمان لعبت يا خالدة؟) (ألم أقل لك يا صبا؟ الحب مزبلة وأنا. . .) (ديكها المؤذن؟ فهمنا. أكرمنا بسكوتك. خالدة ردي عليّ. لِمَ تهربين بعينيك بعيداً عني؟ ماذا قال لك هذا المأفون؟ لا تصدقيه.) (أود ذلك.) (تودين ذلك؟! ما معنى هذا الكلام؟) (ألم أقل لك يا صبا؟ الحب مزبلة وأنا ديكها المؤذن؟ ها ها ها. مزبلة، أجل مزبلة. كل شيء مزبلة، الحب والناس حتى جدة التي تحبينها ليست إلا مزبلة ضخمة. ألا تشمين رائحة بحرها. بحر جدة متعفن وشواطئها مرتع للفئران ونحن كنا فأرينِ. أتذكرين؟ فأران على شاطئ النخيل. لِمَ لا تكتبين قصة بهذا العنوان. ها ها ها، مزبلة يا صَبا) (خالدة، ما معنى كلامك؟ خبريني ماذا قال لك هذا

الديك؟) (قال كلاماً كثيراً. قال إنه لم يكن وحده في حياتك) (. . . . . .) (مزبلة. ها ها ها) (وقال إن الطفل الذي في أحشائك ليس ابنه وحده، وإن ثلاثة آخرين غيره قذفوا ماءهم في رحمك) (. . . . . .) (مزبلة يا صَبا، ها ها ها) (وقال 'ن الماء اختلط بالماء فلم يعرف من منحه لونه ومن منحه عينيه ومن منحه ملامح وجهه الأخرى) (. . . . . .) (ألم أقل لك: كل شيء غدا مزبلة؟ حتى رحمك يا صَبا صار مزبلة) (وقال إن الماء عندما اختلط بالماء وضاعت الملامح تخلَّقَ الجنين مسخاً، وإن الذي تحملينه في بطنك ليس أكثر من غول سيفترسك بمجرد أن يخرج) (مزبلة، مزبلة، مزبلة. ها ها ها) (وقال إن امرأة مثلك تمنح بسهولة لا يمكن أن تكون لرجل واحد) (يكفي، يكفي. قال، قال، قال. وأنت ماذا قلت؟) (. . . . . . .) (الحب مزبلة، قلتها يا صبا فلم تصدقي) (خالدة، كلميني. هل حقاً ستنجبين طفلاً من هذا التافه؟) (هيا بنا يا خالدة. لا يجب أن تقفي طويلاً مع هذه المرأة؛ سيؤثر ذلك على الجنين في بطنك) (خالدة، لا تذهبي، توقفي، اسمعيني. أنت أيضاً ستُعرضين عني. رباه، هذا هو العذاب) (ألم أقل لك يا صَبا؟ مزبلة، مزبلة، مزبلة) (خالدة، بالله عليك لا تدعيني أموت في قلبك مذنبة. لا تذهبي، قفي، اسمعيني، خالدة، خالدة، خالدة، خالدا!!!!!!).

يا إلهي.

أين أنا؟ وما هذا الظلام المريع؟ وهذا البلل من أين جاء؟ ثيابي مبتلة، وجهي مبتل، الأريكة مبتلة. أكاد أختنق. ما أتعسك يا صبا! لم تعودي قادرة حتى على الموت بهدوء. أين ذهبت خالدة؟ هل كانت حقاً هنا؟ يا ربِّ، نسمة تمر على الجسد المنهك. يا ربِّ، هبة

فاترة أموت معها بسلام. الصداع، الصداع والألم والآن الغثيان وأنا لست قادرة حتى على تحريك يدي، فقط أغمض عيني وافتحهما وجسدي بدأ يتخدر خدراً مؤلماً.

كم مضى عليّ من الوقت وأنا هنا؟ وأمي؟ أظنها نامت الآن، وربما كانت مسمرة أمام الشاشة في انتظار عودتي تتابع المدبلجة. هل حان وقت عرضها؟ يا إلهي، لو أعرف كم الساعة الآن. ربما قطع فاصل إعلاني عرض المدبلجة:

[القلوب السهرانين

والعيون المغرمين

سهرانين، مغرمين

بال. . .]

ودائماً القصة نفسها بأسماء جديدة وأماكن مختلفة. خيانات، وأكاذيب، خديعة وأبناء بلا آباء وربما آباء بلا أبناء، انتقام وجنون ومؤامرات. كل شخص يتآمر على من حوله.

ـ كلارا؟ ماذا تفعلين هنا؟

* بل ماذا تفعل أنت مع هذه الحقيرة؟

* اصمتي. أنت هي الحقيرة. أنسيتِ نفسك أيتها اللقيطة المعتوهة؟

* لم أنسَ، ويجب ألا تنسي ذلك يا ليزا. أما أنت يا ايميلو فلنا حديث فيما بعد.

ـ كلارا، كلارا. انتظري، يجب أن تسمعيني.

* تعالَ هنا ودعك من هذه المعتوهة.

ـ اتركيني يجب أن ألحق بها.

* لماذا؟

ـ دعي يدي. أوه، ليزا ليس هذا وقت. . .ليزا أرجوك دعيني ألحق بكلارا.

* كلارا ذهبت، تلاشت. ها ها ها. ما الذي بينك وبينها؟

ـ لاشيء.

* لكن لهفتك على اللحاق بها تقول إن بينكما شيئاً.

ـ مثل ماذا؟

* وما أدراني؟ هل أنت مغرم بها؟

ـ وَاوْ. ماذا أرى ايميلو وليزا متعانقين؟ هل هذا أحد أدوارك الجديدة يا عزيزتي النجمة ليزا؟

ـ فرانسيسكو؟ من سمح لك بالدخول أيها الوغد؟

ـ على رسلك يا سيدي. لم أدرِ أن المكاتب صارت أماكن مفضلة للخلوة بالأحبة، وجدت الباب مفتوحاً فدخلت.

ـ نعم ماذا تريد؟

ـ ما أريد ليس بأهمية ما أنتما فيه. استأذن، سأعود في وقت لاحق. وداعاً يا سيدتي الجميلة.

وداعاً.

أجل وداعاً لكل شيء. وداع بائس، وداع محموم، وداع نازف، وداع مرتبك لن يُكتَشفَ إلا بعد وقت. وحدها جدة تعرف أمر هذا الوداع.

هل نامت جدة؟ هل تأخر الليل إلى حد أن تنام جدة؟

في العاشرة ليلاً تبدأ الشوارع تنعس. تقفل المتاجر المتراصة بامتداد شارع قابل أفواهها. وتغيب المشغولات الذهبية وألوان القماش والأجهزة الكهربائية، تغيب كلها خلف الحديد والأقفال. تخلو المطاعم الصغيرة هنا وهناك وتخف الخطى، وفي آخر الليل يسير جنديان وحيدان يتلوان مزامير الذكريات وأخبار القنوات الفضائية وآخر ما غنته «المملوحة» نجوى كرم!

في الحادية عشرة ليلاً يبدو شارع فلسطين مثل أفعى سوداء طويلة عريضة تركت ذيلها في الطرف الشرقي من جدة وأطلت برأسها على البحر. على جانبي الطريق الجميل المزروع تترامى الأحياء: الرويس، الحمراء، الشرفية، بني مالك، مشرفة، الرحاب. وعلى جانبيه أيضاً تتناثر المطاعم والفنادق والمكتبات والمراكز التجارية، حتى القنصلية الأمريكية اختارت موقعاً يتقاطع فيه شارع فلسطين مع شارع الأندلس لتقيم مبناها. ها ها ها، روعة. لا يفكر بهذه الطريقة إلا الأمريكان. الأندلس وفلسطين وعلم أمريكي يرفرف فوقهما! منتهى الروعة، ها ها ها، كيف لم أنتبه لذلك من قبل؟

أوه، لابد أن شارع فلسطين وشوارع أخرى كثيرة قد خلتِ الآن. دخلت في صمت لا يقطعه غير أصوات سيارات مجنونة تنتظر الليل بفارغ الصبر كي ترمح في الطرقات الخالية تقريباً، والشباب وسطها يفكرون بصويحبات في المطارح البعيدة يبعث تذكرهن لذة ما. صبايا جميلات ليس فيهن سماجة البنات هنا، لا تتراكم الأصباغ فوق وجوههن ولا يتكلفن الدلال في أحاديثهن ويعرفن فناً لا تتقنه امرأة هنا اسمه فن السرير. ها ها ها، أجل فإذا حملت إحداهن لم تتعلق برقبة

صاحبها (يجب أن نتزوج). إنهن أعقل من ذلك بكثير! إما أن تذهب إلى العيادة وتتخلص من حملها، وإما أن تحتفظ به لنفسها. يا للصبايا الجميلات!

هنا ما أن يمر شاب بشفتيه على مبسم فتاة حتى تبادره بالسؤال التاريخي السامج (متى نتزوج؟) (جواز إيه وهباب إيه؟ خلينا دحين نفرفش أما الجواز، الجواز بعدين، بعدين لمّا أجَّمِع مهرك، وانتِ عارفة مهرك غالي. دحين خلينا ننبسط ونفرفش وبعدين نتجوز).

البنات، أجل البنات والليل والسيارات الفارهة والصبايا الجميلات في المطارح البعيدة: جوليا، اليزابيث، مادلين، مونيكا، وتلك التي يشبه جسدها جسد كلوديا تشيفر، ما اسمها؟ آه، ديبورا. أوه، يا للجسد المذهل حينما يتثنى بين يدي رجل قادر على اكتشافه وفكِّ رموزه.

(صَبا، ألن تكفي عن التفكير بهذه الطريقة؟).

لكم أود أني لا أفكر أصلاً. آه، لم يبقَ ماء في جسدي لم تنضحه هذه المسام الصغيرة الموزعة على الجلد. يا الله، الإنسان إذن غربال كبير، وهذا الجسد قادر على طرح سمومه لكن القلب عاجز حتى عن أن يغمض عينيه ويستمر. يستمر في ماذا ولماذا؟ يستمر في المهزلة ومن أجل أخطاء وربما خطايا أخرى؟

(حتى الخطايا يغفرها الله للتائبين. لم تصرين على أن توصدي كل الأبواب؟ لم تستسلمين للقنوط بمثل هذه السهولة؟).

وخطيئتي، هل سيغفرها الله وأنا التي أعرضت عنه كل ذاك العمر؟

يا إلهي، ألن تكفَّ هذه الدموع عن التحدر مثل روحي، مثل دمي

الذي أحسُّ نزفه المتزايد؟ يتدفق حاراً رطباً مالحاً على الثياب وعلى قماشة الأريكة. يلطخ الأشياء التي لم يعد يضيرها أن تتلطخ، والصداع يتركز الآن في مؤخرة جمجمتي والدوار، آه، الدوار. الفردوس المفقود كله يلف بي.

أغمض أحداقي. أنشد متسعاً للبكاء، حتى البحر غدا بعيداً. صوته مثل وشوشة غامضة، والنسمة تمر قليلاً وتغيب طويلاً، والأبواب البعيدة تفتح ثُمَّ توصد بشدة، والعصافير تموت في الليل لتُبْعَثَ في النهار، وأنا أموت في الليل لأُلعنَ في النهار.

رباه.

لو أني أرى البحر الآن، الشطوط الخالية، شاطئ السعادة، بالم بيتش، العائلة، الكناري، المرجان. أسماء كثيرة وبحر واحد ممتد لا أستطيع الذهاب إليه ولا بعيداً عنه.

آه، هذا الألم والأنين الخافت المخذول. كان هناك أنين آخر مجنون، أنين راعش يتعالى من أجل مزيد من الأنين، من أجل مزيد من الألم اللذيذ فوق الرمل بين يدي البحر، فوق الوسائد بين الفردوس المفقود، فوق بلاط الردهة المفروش بين يدي الظلام، فوق جسدي بين يدي عامر، وفوق جسدي أيضاً بين تفاصيل أحلام حسن إمام التي لا تنقطع ليلاً ونهاراً.

(حسن إمام؟ إيه إللي حدفك الناحية دي؟ بقى بذمتك فيه بشمهندس قد الدنيا يسيب المنصورة عشان يجي يشتغل سواق هنا؟)

(إيه؟ بتقول إيه يا خويا بتقول إيه؟) (يوه جاتك خيبة. بتحبني؟ هوا فيه حاجة اسمها حب؟ الله يخيبك. ما انتَ شايفني قدامك أهوه.

فَتَّح عينيك كويس وشوف آخرة الحب إيه. الحب مزبلة. مش سي عامر برضك كان بيقول كدا من شويه؟) (آآ، مزبلة. لهو انتو يا خويا ما بتنضفوش بيوتكو؟ خلاص، بعد ما تنضفوا أُقعد فتش زبالتكو ح تلاقي الحب قاعد مستنيك هناك) (مالك بتبصلي كدا ليه؟ فاكرني بهرَّج؟ طب بُص، أنا حبيت ولعبت بديلي، إيه رأيك؟) (شايف، شايف عينيك بتبرق لي إزاي؟ إيه مستغرب ولا مش مصدق؟ آ والله لعبت بديلي. هتحب واحدة نامت مع راجل، قصدي ديك غيرك؟ ما هو سي عامر قال لي (الحب مزبلة وأنا ديكها المؤذن). مالك فتحت بقك ورجعت على ورا كدا ليه؟ متخافش يا نن عين مامتك، مش هاكلك، مش هتشعبط فيك. شفت بقى إنك ما بتحبنيش وبتحب حاجة تانية إنت عارفها كويس؟ يا راجل، أسفة قصدي يا ديك، ولا يهمك. مش هزعل منك أبداً. عمرك شفت ميت بيزعل من حد؟ باي بقى ما نعطلكش، ماعندناش حب يا خويا، ماعندناش حاجة أبداً، ماعندناش حتى دمع عشان نبكي. روح، روح الله لا يسيئك. روح يا بني لِم لك قرشين وارجع بلدكو واتجوز بس قبل ما تتجوز اسمع نصيحتي واكشف ع اللي هتتجوزها لأحسن تكون حبت ولعبت هي كمان. الاحتياط واجب ودا حقك. دا من أبسط حقوقك. إنت تلعب ما يهمش، لكن هي يهم، ويهم قوي. هي الدنيا فوضى ولا الدنيا فوضى، ولا إنت هتحط تعبك وشقاك في بضاعة معطوبة؟ وبعدين إللي لعبت قبلك هتلعب بعدك وهتلعب وهي معاك) (بتضحك؟ ومالو اضحك يا خويا ما هو دا اللي بيقولوا عليه هم يضحك وهم يبكي، بس روح اضحك بعيد. مش عايزين إزعاج، البيبي نايم جوايا وإنت واقف تكركر قدامي. روح يا بني يا حبيبي وبطل عبط. قال حب

قال! أنا عارفة بتجيبوا الكلام الخايب دا منين؟ يمكن مِ الأغاني الخيبانة بتاعت الأيام دي ولا المسلسلات اللي ما عادتش جايبة تمنها. ما فيش حاجة اسمها حب. فيه حاجة اسمها لعب. البت الذكية بقى تلعب ع الخفيف. تلعب بعيد عن نقطة الخطر. ما هو اللعب أنواع: لعب خفيف بيلعبوه وهم متهندمين، لعب بين بين بيلعبوه وهم نص متهندمين، ولعب تقيل من غير هدوم زي اللي أنا لعبته، ودا بقى لعب بأثر رجعي) (مالك؟ بتبحلق لي كدا ليه؟ إنت بطلت تكركر وبدأت تبحلق، حاسب لا تجيلك سكتة. يا خويا، هو العمر بعزقة عشان تقعد تحب ف واحدة لعبت؟ ما تلعب مع واحدة حبت. مش أحسن برضه؟) (إيه؟ عايز تلعب معايا؟ أسفة يا خويا ما ليش نفس ألعب مع حد دلوقت وبعدين البيبي اللي بطني اعمل به إيه؟) (نخرجه؟ نخرجه إزاي؟ إنت كمان عايز تدخل ايدك وتخرجه؟ ماهِي البعيدة اللي ما تتسماش سبقتك ودخلت ايدها قال عايزة تخرجه. أنا مش فاهمة انتو متضايقين منه ليه؟ هوَّ كان عملكو حاجة؟ طب هي وغيرانة. آ، مش مصدقني؟ آ، وكتاب الله غيرانة. إزاي أحب وألعب ويبقى عندي عيل كمان؟ إنت فاكرني سبتها تعمل إللي هيَّ عاوزاه؟ أبداً، بعد ما سابتني رجعته جوايا تاني. عايز إنت تخرجه ليه بقى؟ عشان تلعب؟ لا يا خويا ما بحبش ألعب مرتين ورا بعض. لازم آخد راحة. وبعدين البيبي يشوفنا يبقى منظرنا وِحِش قدامه ولاً يتهف ف مخه ويقول أنا عاوز ألعب كمان) (آآ، ما هو سي فرويد بيقول إن احنا نبتدي اللعب من واحنا صَغيرين. لعب ع الخفيف بعدين ننساه، حلوة ننساه دي مش كدا برضه؟ في حد يا بني بينسى اللعب؟) (إنت هتقعد تبحلق لي كتير؟ ما قلنا لك من بدري ما نعطلكش ماعندناش حب ولا

لعب. يللا بقى هوينا يا سي حسن، نعيمة روحت من زمان. عايزها؟ روح دَوَّر عليها بعيد من هنا. أنا مش فضيالكو، إيه البلاوي اللي بتتحدف ع الواحد آخر الليل كدا؟ عجيبة والله. أديني اتأخرت على معادي مع البحر. ارتحت خلاص؟ زمان البحر بيضرب أخماس في أسداس اكمني اتأخرت، يا ترى ويا هل ترى؟ لا لا لا، ما يروحش بالك بعيد ما فيش لعب. اِوعَ كدا يا خويا انتو ناس ما بتفكروش غير في اللعب. سبتك بعافية. إذا حد سأل عليَّه قله راحت البحر. باي بقى يا...، ديك الندامة).

البحر، البحر، البحر. أين ذهب البحر؟

آه، الظلام. دائماً الظلام. الظلام الخانق، الظلام اللزج يزحف مثل دودة على الستائر والأرائك والممرات والغرف السرية. آه، ما أكثرها!

لم يبقَ إلا البحر، ولكن كيف أصل إليه وأنا وسط هذا الصندوق؟ لا باب، لا شباك، لا شيء سوى الجدران التي ستنطبق عليَّ عما قليل. أين غاب الباب؟ كان هنا فما لي لا أجده؟ وهؤلاء الذين اصطخبوا عند رأسي من أين جاءوا؟ كيف اقتحموا عليَّ وحدتي؟ هل هناك معبر سري؟

أوه، يا إلهي، أسرار، أسرار، محظورات، محرمات، حتى الناس غدوا أسراراً مبهمة تملأ الشوارع والبيوت. وأنا؟ كنت أغبى من أتقن لعبة الأقنعة. دخلت الحفلة بوجهي وفي عيونهم كنت أقرأ استغراباً وذهولاً (ما الذي أتى بهذه الطفلة؟) (من أدخل هذه الغرة الساذجة؟). وحين بدأ اللعب كانت الأقنعة تتمزق فيبدلونها بأقنعة جديدة وكان وجهي يتمزق ودمي يسيل على رقبتي وعظامي تبرز وأظافرهم تنغرز

في لحمي وأنا أصرخ وهم يضحكون، يضحكون، يضحكون (قلنا ممنوع اصطحاب الأطفال. هذه حفلة للناضجين) (أخرجوها قبل أن يلوثنا دمها).

وها أنذي منبوذة وسط هذا الظلام السري الخانق. وتلك الرائحة التي ملأت كوابيسي تزكم أنفي، عفونة حامضة وأنا أود لو أغمض عيني مرة واحدة أخيرة بين يدي البحر. آه، ألا يأتي البحر إلى هنا. يجتاحني وحدي، لا، لا، يجتاحني مع طفلي يذهب بنا بعيداً عن الفردوس المفقود، عن جدة، عن الشوارع التي أنكرت أسماءها، عن الأقنعة، عن الأسرار والخيبات الكثيرة، عن الكتابة والزيف. زيف، زيف. عيون زائفة، قلوب زائفة، أيام زائفة حتى المدن غدت زائفة.

آه، ما الذي حلَّ بي؟ ما الذي حل بأحلامي فهشمها وغرز شظاياها في روحي؟ ياه، كان ما أكثر الأحلام! قلت سأكتب عن جدة، قلت سأرسم جدة التي أحبها على الورق. خربشت أوراقاً لم أُنهها، وها أنذي أُكتَبُ للموت وأترك جدة خلفي تصطخب كل صباح دون أن يغير اليأس ملامحها.

وأنت يا طفلي، ألم تفكر بالخروج بعد؟ تعالَ. جرب أن تتوسد ذراعي، تغمض عينيك وأنا أهدهدك:

(هوها يا هوها

والكعبة بنوها

سيدي سافر مكة

جاب لي صندوق كعكة

والصندوق ما لو مفتاح

والمفتاح عند النجار

والنجار يبغى الفلوس

والفلوس عند العروس

والعروس تبغى الولد).

عروس وولد؟ ها ها ها. لكني لست عروساً ولن أكون عروساً لأحد وأنت لن تولد؛ لأن المطر لن يأتي. لا شيء سيأتي. حتى النجوم غابت عن سمواتنا ولم يعد القمر وحيداً، زاحمته أقمار معدنية سيضج بها الفضاء عما قليل. ولم يعد وجه الحبيب القمر الوحيد الذي يطل على شرفات الانتظار الليلية. ازدحمت خلايا الوحوش المعدنية المعلقة بين السماء والأرض بأقمار كثيرة. أقمار m. b. c. و(الأيام أحلام). أقمار، لا، لا، حوريات L. b. c. (هل رأيت ريما قرقفي؟) (رأيتها، لكن المأساة أنها لم ترني).

(هناك أقمار لا ينبغي الحديث عنها. أقمار تدخل تحت طائلة المقاطعة العربية) (عذراً، المقاطعات كثيرة، مقاطعة تجارية، مقاطعة سياسية، مقاطعة رياضية. أي مقاطعة تقصدين؟) (أقصد المقاطعة الفضائية) (هم م م، في الواقع أن هذا الأمر طُرِح للنقاش على هامش اجتماع القمة العربي الأخير ولم تُنجَز صيغة القرار النهائي بشأنه بعد. هناك اعتراض من إحدى دول إعلان دمشق، لكن الأمر في طريقه للتسوية، وفي غضون أقل من ١٠٠عام سيعلن قرار المقاطعة الفضائية) (وهل ستكون الدول العربية موجودة؟) (ماذا!!؟).

أنا لن أكون موجودة، وأنت يا طفلي لن تكون موجوداً، وربما لن يكون هذا العالم الآيل للسقوط موجوداً، هذا العالم اللاهث الذي لم

يعد قادراً على أن يتوقف كي يلتقط أنفاسه، ربما سيغدو نسياً منسياً، ربما يجتاحه طوفان. طوفان بلا نوح يعم الأرض ويغسلها من البشر والخطايا ولا يبقى غير الصمت.

لم يعد مهماً من يقاطع من، من يرتمي في أحضان من، في كلتا الحالين خسرنا وسنخسر أكثر! منذ قرون ونحن نخسر (جات على دي يعني؟).

آه.

من أين بدأنا وإلى أين انتهينا؟ وهل حقاً انتهينا؟ هل تكون الدانتيلا والشموع والفردوس المفقود نهاية لخيبة كبيرة فكرت أن ألوذ إليها وسط جحيم من التناقض؟ كل شيء يتناقض مع كل شيء. الأحلام مع الواقع، المبادئ مع السلوك، الكلمة مع الفعل، والأنكى تناقض الحاضر مع الماضي، هذا التناقض الذي يجعل من الحاضر حبلاً طويلاً من الخيبات يلتف حول الأحلام المجهدة؛ لأنها لم تكن نتاجاً لذلك الماضي ولأنها عاجزة عن التوافق مع هذا الحاضر الذي لا ينبت في حقوله غير اليأس. (يا فيلسوفة عصرك، ارحمينا، انتهى وقت الكلام).

انتهى وقت أشياء كثيرة وليس وقت الكلام فقط، أنا أيضاً انتهيت وعرفت «أني هلكت وأني تركت هنا خير ما فيَّ: ماضيَّ».

يا الله.

أريد أن أغني لأمي. أتشاركني يا طفلي؟ نغني لامرأة وحيدة لا تعلم أني فجيعتها:

(أمي، لماذا ذبلت وردة الكلام عند أعتابك؟

أنا نبتك المصفر وحصادك الذي تخطفته الطير.

أنا تفاحة تدلت من غصنك لتنخرها الديدان.

أمي، هل لغيمة أن تنكر مطرها حتى إن كان حجراً؟

لا تنكريني، لا ولا تذكريني، فقط سامحيني).

سأغمض عيني، في آخر الأمر قد لا يأتي من يغمضهما لي. وإن جاء ربما تشاغل بالبحث فيهما عن أسرار مخبأة، وربما تبدت له كل التفاصيل الغريبة الموجعة المقززة فلعنني، لا، لا. سأغمض عيني، لا. سأفتحهما كي يصفع العار قلوبهم. سيخجلون. لا؟! ويغدو موتي بلا معنى، لا، لا، لا. وربما بل إنهم سيلعنونني. لا، لا

لا، لا، لا، لا، لا، لا، لا، لا، لا، لا، لا، لا!!!!!!!!.



لن تبكي الحساسين على الشرفات

أغسطس.

أزهار كثيرة تموت في أغسطس. صَبا وعامر، من منكما كان الزهرة ومن كان الحجر؟ وهل تنبت الزهرة في قلب الحجر؟ وأنا إلى أي حدٍّ اقتربتُ وخلف أي سور وقفتُ؟

أغسطس.

وأنا لم أبكِ بعد. لا غيم في أغسطس حتى أبكي، والبحر محروق على ضفاف جدة. مسجور كقلبي وربما مسجون كدمعي.

وأنتِ يا صَبا عبد العزيز كان يجب أن أهزَّكِ بعنف وأصرخ في وجهك (أنت امرأة هشَّة لا تصلح للحياة. خربتك الكتب. الكتب لا تشبه الحياة والذين يكتبونها حاقدون حُرِموا متعة الحياة ويريدون أن يحرموا الآخرين منها).

تباً لي إذ لم أعرفك. تباً لي حين عرفتك. كل هذه الأعوام بيننا وجاءت البارحة لتكشف لي عن جهلي المريع بك. أنت لست امرأة ولست ملاكاً، لا ولا شيطاناً، وأكاد أجزم أنك لا تنتمين لهذا الكوكب. لِمَ لمْ تخبريني من أي مجرة جئت فقط كي أعيد رفاتك إلى مثواه الأخير؟!

البارحة تفَجَّعتْ أمك طويلاً ونحن ـ أمي وأنا ـ نسندها كي نوصلها إلى سريرها، وحين مررنا بغرفتك وقعتْ أمام الباب وهي تنشج:

- رائحتها. دعوني أدخل. أعرف أنها مازالت نائمة. قالت لي إنها ذاهبة إلى البحر ولم تقل إنها ذاهبة للموت.

خبطتِ الباب برأسها وتأوهتْ أمي:

- يا حسرتي.

وأنا كالجدار، لا دمع لا اختلاجة ترتسم على وجهي. كنت مبهوتة وكنت أرقب فعل الموت في المرأتين، أمك وأمي.

الموت يا صَبا؟ الموت؟ ألم تجدي غير الموت؟ جبانة. أرنبة برية رعديدة. لن أسامحك، أبداً لن أسامحك إذ اخترتِ أسهل الطرق للمجابهة، الموت. إن الموت ليس حلاً أيتها الحالمة الموسوسة الموهومة. الموت ليس أكثر من هروب مفضوح تمارسه أرنبة برية خالطت دمها جرثومة المثالية، لكنك بهذا الموت الفادح لن تكوني مثالية أبداً. لن تكوني أكثر من شابة مجنونة ملعونة وغداً سيلمزك الناس (يا لطيف أَنْتَحَرتْ) (اَسْتُرْ على ولايانا يا رب، بيقولوا كانت حامل) (وي يا ندامتي، الشر برا وبعيد، نسمع ونسلم).

موتك جنون. ممارسة للعبث ذاته الذي كنتِ تنفرين منه، ولن يسبغوا عليك وشاح البطولة إلا إذا انقلبتِ الموازين وصار بإمكاننا أن ندوس السماء.

وإذا لم أكن قادرة على أن أعذرك يا صَبا فمن سيعذرك؟ ألِى هذا الحد كنتِ قصية عني؟ ألِى هذا الحد كنت غامضة ومجللة بأسرار اكتشفتُها بين القصاصات والأوراق التي أرسلتها بالبريد قبل أيام لتصلني البارحة؟ كنت ترتبين لموتك إذن. جبانة، ألم أقل لك؟!

الذين يخطئون ويعترفون بأخطائهم حكماء، والتراجع عن الخطأ

ليس فضيلة فقط، هو أيضاً قوة ونبل. وأنت لم تكوني حكيمة ولن تكوني قوية أو نبيلة. سمحت لخطأٍ أن يحطمك. أتعرفين لِمَ؟ لأنك تفكرين بمنطق الخطيئة ـ مثلهم ـ وكنت تطلبين غفرانهم وتجاهلت أو لأقل نسيت غفران الله.

ما أضعفك!

وما أتفه الدنيا!

قبل البارحة فقط كنت أفكر فيك بحميمية أفزعتني قليلاً. لم يحدث أن ألح عليَّ خاطر رؤيتك من قبل بمثل هذه الطريقة وكانت صورنا في الشاليه ـ الفردوس المفقود ـ أمامي على المكتب. اتصلتُ بك. كنت أريد أن أقول لك:

ـ ما رأيك بمغامرة صغيرة؟ نذهب إلى الفردوس المفقود مثلاً.

وكنت أتخيل أنك ستضحكين ـ رغم أنك ما عدتِ تضحكين كثيراً في الفترة الأخيرة ـ ثُمَّ تقولين:

ـ ولِمَ لا؟

رَنَّ الهاتف طويلاً دون أن يرفعه أحد، ولم أكُ أدري أنك غائبة عن البيت، عن الحياة بأسرها، وأن العالم ـ كل العالم ـ خرج إلى دروب جدة يبحث عنك.

في البناية المواجهة لبيتنا شبَّ حريق صغير. كانت سيارات الدفاع المدني والشرطة تتجمع في الشارع و.. (وي وي وي ي ي وي وي وي) طويلة ممتدة مُفجِعة تملأ فضاء الكون من حولي. انقبض قلبي ولم أدرِ أن العالم كان يرثيك، كان يتفجَّع أمام نافذتي تماماً كما تفجّعتْ أمك أمام باب غرفتك الذي راودتنا عنه وهي تقول:

ـ في الأيام الأخيرة كانت تردد: سامحيني. علامَ أسامحها يا بنتي يا خالدة؟ سامحتك يا صَبا. عودي إليَّ. أعرف ماذا سيقولون عنك لكن لا تهتمي، أنا أريد أن تعودي. أنت ابنتي وهم لا شيء.

ما أتعس الأمهات!

كانت تجهش بصورة مريعة وأمي تحول بينها وبين الدخول وتهتف:

ـ يا حسرة قلبي، يا حسرة قلبي.

وبطريقة غامضة لاح لي في عيني أمي سؤال (هل سلكتِ الدرب نفسه؟)

أترين أيتها الغرة، حتى أمي لن تغفر لك؟

(الله في عليائه لن يغفر لها)، هكذا سيرددون وهم يجرعون شايهم أو يمضغون طعامهم، والذين تجمعوا أمس للعزاء جاءوا يتسقطون الأخبار. تعرفين، يبحث الناس دائماً عما يجعل جلساتهم الطويلة غير مملة وليس مثل حكايا الآخرين، للعظة والعبرة، وتفريغ الأحقاد والتشفي. (يا لطيف، بنت مفلوتة على حَل شعرها، ما لها والي، وآخرة الفلتة لازم تكون كدا).

المرأة نار لا يقربها إلا مغامر أو مقامر. أنت احترقت ولم تحرقي غير قلبي وقلب أمك.

المرأة!

لن أزعج الحياة بالكلام عن المرأة ولن أزعجك، لكن ألم تعي هذه المأساة بعد؟ ألم تدركي أنك كيان ناقص غير جدير بالثقة ولا يحق له أن يجرب؟ المرأة التي تجترئ على أن تخوض التجربة سيسقط عن رأسها تاج الفضيلة وستهوي في الدرك الأسفل من جهنم.

أغسطس.

كم أغسطس سيمر قبل أن استوعب ألم فقدانك؟ والدمع، متى سيجيء؟ وإذا كانت سماء أغسطس مجدبة فمن أين سيأتي الدمع؟

البارحة، حين لذتُ إلى غرفتي وفتحت بريدك المختوم كنت أتوقع أن أجد رسالة من رسائلك المجنونة. رسالة تفكُّ أسار الدمع وتمنحني بعض عزاء، وما أن أنهيت أول صفحة حتى انقلب الكون. قلبي أيضاً انقلب. فزعت إلى النافذة، لم يكن الدمع هو الذي يخنقني، كانت الفجيعة هي التي تغرز أظافرها في لحم القلب. هتفت بنبرة موجوعة (عامر؟!)وملأتْ فمي مرارة. لو أني قرأت أي اسم آخر لما تغيرت ملامح القلب، لكن أن يكون الاسم المنقوش بعناية على خاتم الخطبة في يمناي هو ذاته الاسم الذي كان سبب تعاستك وعذابك فهذا ما لم يتوقعه عقلي أبداً.

كيف لم أنتبه؟ كيف لم أخمن أن سرَّ الأسرار وقدس الأقداس الذي ظللتِ تتحدثين عنه بصورة مبهمة طوال الأشهر الماضية وتقولين لي (سأخبرك ذات يوم باسمه، سأعَّرفك به، تريثي ولا تخافي) لم يكن غير عامر؟ عامر الذي كنت أراه كثيراً وأعرفه أكثر وفي آخر الأمر كنت سأتزوجه.

أي قدر ساخر؟ أي حكاية؟

امرأتان ورجل سيعلمني الحقد. سيُصير قلبي صبارة خضراء ندية مسيجة بالشوك. لن تكون هناك أحلام كثيرة وستبهت بعض التفاصيل وربما غادرتني العذوبة واندحرت البراءة في أقصى بقاع الذات، لكن هذا لا يعني موتي، يكفينا موتاً.

عامر!

وقلت لك: لا يشبه صلاح السعدني!

وكنت سأتزوجه لأني أعرفه لكن أنت لم أحببته؟ ما الذي وجدته عند هذا الخائب؟ وكيف استطاع أن ينفذ إلى روحك؟

الآن عرفت سرَّ ارتباكك عندما ترينه، ولِمَ يتغير وجهك كلما جئت ووجدته عندنا. الآن انزاحت الغشاوة، ولو أن إخلاصي لك كان أعمق قليلاً لأدركت منذ البداية أنْ ثَمَّ شيئاً يختمر بينكما، بين الزهرة والحجر. لكن الإخلاص خانني ومرت التفاصيل أمام عيني مرَّ سحابة جهوم فقط كي تموتي وحيدة في الفردوس المفقود دون أن أشهد تفاصيل موتك الأخيرة.

ومادمنا لا نتقن غير الشجب والإدانة فإني سأشجب موتك يا صَبا. أجل أشجب موتك الجبان الذي لا يقدم ولا يؤخر. الموت التافه إن جاز لي أن أسميه. أسألك: هل حل موتك الإشكال؟ إنه حتى لن يعني راحتك بأي حال من الأحوال، وإن ظننت ذلك فأنت غرة ساذجة. ساذجة يا صَبا.

سأشجب أيضاً الحب الذي لا يقودنا إلا للموت. الحب الذي يطوي بين جنبيه جرثومة فنائه وأحياناً فنائنا.

كنت تبحثين عن الحب؟

لن ألومك، أيُّنا الذي لا يبحث عن عصفور الجنة؟ لكن الحب أيتها المغدورة لا يعني الموت. ومتى ما انتهى الحب بالموت فإنه إما أن يكون قصة نقرؤها في كتاب، أو أن يكون مرضاً ألمَّ بالقلب حتى إن رفض خيالك المجنح هذا. الناس لا تموت من الحب، وهذا

الذي مُتِ بسببه ليس حباً، إنه ليس أكثر من دودة نخرت قلبك وعلمتك الاستسلام.

أغسطس.

وثَمَّ أشياء لا يمكن أن يغير مرور الوقت من وقعها الحاد، بل ربما جعله أكثر حدة ومرارة. وأن أكون الخنجر الذي غرزه عامر في قلبك قبل أن يمضي نافضاً يديه موغلاً في بُعده أمر لن يتجاوزه القلب بسهولة.

لكن الأمر ليس ذنبك ولا ذنبي، وبالنسبة لعامر فإن ظنوني فيه لم تخب. هذا هو الأسلوب الذي يفكر به وبهذه الطريقة ذاتها يخلِّص كل مواضيعه العالقة. كنت أرقبه في كل علاقاته السابقة، وكنت أعرف أنه سيعود إليَّ في آخر الأمر لا لأنه يحبني؛ ولكن لأنه كان عاجزاً عن أن يثق بأحد سواي.

كان يجرب تأثير جماله والفتنة المسمومة التي ينضح بها وجهه. كان يجرب ولست أدري إلى أي مدى وصلت تجاربه السابقة، لكني متأكدة الآن أنه معك أنت قد جاوز حد الغفران. كيف أغفر لرجل ولغ في دماك البريئة حتى لو كان ابن خالتي وخطيبي اللعوب؟

بإمكان المرأة أن تتزوج رجلاً لعوباً باختيارها، وإن اكتشفت ذلك صدفة فإنها ستتحمل، لكن الرجل لا يتزوج امرأة لعوباً إلا نادراً. وبالنسبة لعامر لم تكوني أكثر من علاقة سرية عابرة، امرأة لعوب مستعدة لأن تمنح فكيف يُعرِض عنها؟ والمرأة التي تمنح خارج رباط الزواج ليست أكثر من ساقطة!

الحب هنا خطيئة لا يغفرها حتى المحبون لأنفسهم. أنت أيضاً

تعاملت مع حبك المجنون ـ إن كنت سأتفق معك على أنه حب ـ تعاملت معه بمنطق الخطيئة ذاته. خبأته وأعرف أن لعامر دوراً في هذا. ولم تخبئيه لأنك تخافين عليه، بل لأنك تخافين منه.

قبل أسبوعين فقط جاءنا عامر في زيارة عابرة. كانت ثَمَّ خدوش خفيفة على وجهه ورقبته وصدره، بلغت به الجرأة أن يترك قميصه مفتوحاً، وحين سألته عن سبب هذه الخدوش افتر ثغره عن بسمته المميتة وقال:

ـ هاجمتني لبوة.

لعنة الله عليه. قلت لك خانني إخلاصي لك. قالت أوراقك إنكما تشاجرتما، لكن لِمَ خربشت وجهه؟ هل كنت ترغبين في تمزيق ذلك الغلاف الآسر بحثاً عن الثمرة المتعفنة ـ قلبه ـ أم تشويهاً لتلك الفتنة الطاغية؟

لن ألومك.

لو كنت مكانك لتمنيت أن يخرج الطفل من أحشائي لحظات كي يرى إلى أي حد كان قلب أبيه معطوباً، وكي يكرهه أكثر مما كنت تكرهينه في تلك الساعة.

بعد زيارته بأيام تمت الخطبة. كان متعجلاً بصورة حركت قليلاً بحر قلقي الراكد، لكن ظنوني لم تسافر بي بعيداً. كنت أعرف أننا سنتزوج في يوم ما، فإذا كان هذا اليوم قد حان فلِمَ القلق؟

لعنة الله عليه، سافل. إنه وباء، شيطان مريد. ظنَّ أن الخطبة ستلجم لسان إحدانا. وها أنذي بعد أسبوعين أعرف ما سيغير ملامح القلب وربما شوهها. إن كانت في القلب جروح فسيمضي وقت طويل

قبل أن تلتئم تاركة ندوباً شتى. وإن كان في القلب يأس فسيمضي زمن طويل قبل أن يرف الأمل بجناحه. ماتت براءة أحلامنا فهل تلومينني؟

وعامر؟

طرقت بابه بعنف هذا الصباح. انفتح الباب عن دهشته، وبدا كأن لم ينم حتى تلك الساعة رغم أنه كان يرتدي منامته. هتف:

ـ خالدة؟!

فقلت بغل:

ـ ماتت صَبا. لن أغفر لك، أبداً لن أغفر لك.

وبصقت في وجهه. كنت أريد أن أبصق في وجه العالم بأسره لحظتها. مسح لعابي بطرف كمه فيما اندفعتُ:

ـ سافل، حقير. كنت أعرف أن في أعماقك شيئاً مريعاً، خراباً، لكني لم أدرِ أن مرضاً هناك يتآكلك.

وخلعت خاتم الخطبة ورميت به وجهه:

ـ لا، صدقني ليس مرضاً. المرض يمكن شفاؤه. إنه وباء، أجل وباء قضى على صَبا ولن أغفر لك كل ما فعلته بها. لعنة الله عليك، لعنة الله عليك حتى قيام الساعة.

لم انتبه أن صوتي قد علا حتى جاءت خالتي ـ أمه ـ التي صرخت محتدة:

ـ ماذا حلَّ بك؟ جُننتِ؟ وأنت لِمَ تسكت لها؟ (ثُمَّ التفتت إليَّ) من هي صبا؟ وما دخل عامر بها، هه؟

كان الغضب المجنون يهصر الروح. الغضب الذي ظل يتورم في

الأعماق منذ البارحة، الغضب الذي ظل يكبر ويكبر مثل وحش يلتهم التفاصيل الصغيرة التي مرت، والذكريات والأوراق والرسائل والكتب والشوارع والناس، ولا يتجشأ ولا تُنَفِّس عنه الكلمات ولا حتى الصراخ لا ولا الدمع. أجل، كان الغضب الحاقد يصرخ ملتاعاً:

ـ اسأليه، اسألي فتاك الساحر من تكون صَبا؟ لعنة الله عليه.

وبتهور طفقت أبصق في وجهه بجنون مريع قبل أن التفت إلى خالتي وأنا أهذي:

ـ لعنة الله عليك أنت أيضاً. أنت التي حملت بذرته الفاسدة. كان يجب أن تموتي قبل أن تنجبيه.

كنت أرقب شفتها السفلى وهي تتدلى بتأثير الدهشة، وأرقب الدماء والألوان والملامح وهي تغادر وجهه، وقبل أن يتكلم أحدهما كنت قد نزلت الدرج بسرعة.

تصرف أحمق؟

أعرف، لكن مرارة الخديعة كانت تنسكب في القلب وربما انبجست فيه مثل نبع مرٍّ وسط غابة. أجل، كنت مخدوعة بك أنت. خدعتِني حين استسلمت لإغوائه، حين لم تسمحي لي بالتوغل داخل مسالكك الوعرة فقط كي اكتشف الإنسان المخبوء بأعماقك، المرعوب من الضوء، من ضجيج الحياة، من الخذلان، المتلهف لأمان، ليد كريمة يمدها الحب والصدق والرغبة الحقيقية في الصحبة.

البارحة فقط عرفت أن البراءة المفرطة تحوي سماً قاتلاً، وهل أودى بك شيء غير البراءة والأحلام التي ظللتِ أسيرة ممتنة لها ومرعوبة من فكرة أن تخوضي بقدميك الماء الآسن ولو قليلاً. إلى

هذا الحد كنت تخافين على نقاء الأشياء داخلك؟ إلى حد الموت من أجل لطخة صغيرة شابت بياض القلب؟

كنت أرقبك ذات مساء وأنت تشكلين وروداً جميلة من عجينة السيراميك. كانت العجينة اللدنة تستسلم لأناملك الرخصة وتتشكل بتلات شبه دائرية تلصقينها بحذر مرهف بتلة إثر بتلة. خلق ساحر لوردة فاتنة وضعتها جانباً كي تجف ثُمَّ تناولت أخرى جافة كي تصبغيها وإذ التفت إليَّ تكلمينني انكسر طرف إحدى البتلات. كان كسراً صغيراً طبيعياً جداً بدت معه البتلة مشرشرة قليلاً تماماً مثل أي وردة طبيعية. ملأتني الدهشة إذ رأيتك تسقطين الوردة في سلة المهملات. هتفتُ:

ـ لِمَ؟

قلتِ بعفوية:

ـ تشوهتْ. سأصنع واحدة أخرى.

وران صمت. لم أفهم كيف يمكن أن يغدو كسر صغير تشوهاً تستحق الوردة من أجله أن تنبذ، تموت.

أحاول أن أدرك الآن العذاب الذي اعترى روحك حين أيقنتِ بأنك تشوهتِ وأن الأعماق القصية غدت ملطخة ومشرشرة كالبتلة سواء بسواء.

يا للتعاسة.

الورود كثيرة. تذبل وردة اليوم لتتفتح أكمام أخرى غداً، لكنك يا صَبا خلقتِ بهذه الروح القلقة المعذبة المفتونة بما هو قصي -- الكمال ـ خُلقت هكذا مرة واحدة، وإذ تغيبين فإن روحاً مثل روحك

لن تطرق أبواب الكون غداً. لن تأتلق في أفقي عينان مثل عينيك، لن يكون لبشر بسمتك ولا حتى حزنك أو عذابك.

أهكذا يكون الرثاء؟

أهكذا أرثيك أنا التي لم يفجعني موت منذ زمن؟ لِمَ يبدو موتك شبيهاً بموت حلم؛ موجعاً إلى حد الهروب من تصديقه؟ ولِمَ إذ تموتين لا يزورني الدمع؟ لِمَ يبدو كل شيء خارج هذا الموت حقيقياً: السماء الصافية حد الجفاف، صخب جدة، بحرها الذي شهد موتك، دروبها المكتظة بكل شيء عدا الألفة؟

جدة!

هل تكون جدة محاولة أخيرة لاجتراح أمل ما حتى إن بدا ساذجاً؟ لم أدرك إلى أي حد كانت جدة موغلة في أعماقك حتى قرأت أوراقك، لكن ما أكثر الذين أحبوا جدة فذهبوا وبقيت هي! ما أكثر الذين كرهوها ففنوا وظلت هي! ما أكثر الذين لعنوها فاستمرت وتلاشوا! دائماً جدة هناك. ذاكرة مدهشة لأحقاب سحيقة.

وأنت وأنا فتنتنا المدن. وضعنا قائمة بأسماء المدن التي سنتسكع في طرقاتها بحثاً عن تفاصيل موغلة في غرابتها، عن الناس، عن الحزن وأحياناً عن الحب. بيروت، روما، دمشق، موسكو، برلين، بكين، جنيف، القاهرة، صنعاء، مدريد، نيويورك، . . . . ، . . . . . ، وأخيراً ـ كنت تقولين ـ الإسكندرية. دائماً يجب أن يكون البحر جارك. وكنت تقولين إنك ستزورين الإسكندرية ليمنحك الحب فرصة اكتشافها موجة موجة، بناية بناية، شارعاً شارعاً، عصفوراً عصفوراً، وقلباً قلباً.

ما أقساك!

ها أنتذي قد رحلت قبل أن تدعيني اكتشف معك جدة، المدينة التي كشفت لحبك عن وجه لم أره فيها. ظللتُ البارحة أتذكر كل الأماكن التي عبرت في أوراقك، الشوارع والمنعطفات والجسور والبنايات الضخمة والبحر قميص جدة الشاحب المتراجع دوماً إلى الوراء، المدفون تحت أطنان الرمل من أجل أن تصير اليابسة أكبر من البحر، وكم كان غريباً أن أكتشف أن كل ما عرفته عن جدة لا يشبه بأي حال من الأحوال ما عرفته أنت وكتبتِه.

وها قد خلت جدة منك. هاهي ذي ستكشف لي عن وجه الموت، تقرأ عليَّ سطرين من كتاب المعرفة ثُمَّ تسلمني للشوارع، لنزق الذكريات وجنونها، للبحر ـ قميصها الشاحب ـ يفتح عشاقها أزرته واحداً تلو الآخر، وإذ تتبدى التفاصيل تكون الدهشة قد أخذتهم بعيداً وتكون هي قد رتبت شعثها وعدَّلت هندامها في انتظار عاشق جديد.

الآن، لا بحر في البحر، وأنا لم أنم ولم أبكِ (ما أقساك! حتى الدمع أخذتِه معك). وأغسطس يغير طقسه تجاه الموت. أغسطس يعتسف الغيم ويصفع وجه البحر. أغسطس قاسٍ شحيح مستبد وأنا أكرهه وسأكرهك أيضاً يا صَبا. أجل، سأكرهك وسأحقد عليك إذ تغيبين وتتركين للقلب كل تلك التفاصيل التي عشناها معاً تماماً مثلما يفتح المسافرون حقائبهم في غرفات الفنادق ثُمَّ يطوونها عند الرحيل على عجل وقد نسوا بعض ما فيها في الأدراج. وأنت لم تنسي شيئاً، بل جئت وفتحت حقائبك في القلب ثُمَّ رحلت عنها وعني بلا وداع.

تركتِ رفوفاً من الذكريات والتفاصيل الصغيرة التي لن تغيب عن

القلب، وجهك ونحن نتداول أحاديث العذاب أمام الفردوس المفقود وتنورتك الزرقاء الشاحبة ترتطم بساقي مثل موجة بحرية بلا زبد. في نهاية الأمر يا صَبا، ربما كنا نحن الزبد الهش الذي يذهب جُفاء. ولم نكن نتحدث، كنا فقط نحاول ألا نستسلم لليأس وأحياناً لجدة التي غدت مثل أَكُفٍ عملاقة تطبق على الأحلام فتغتالها. جدة التي لا تعرف منطقة وسطى، ولا تؤمن بأنصاف الحلول، ترهف أسماعها لخطاب المال وكرة القدم والفيديو كليب، وتتثاءب ـ مثل جمهور أمسية قصصية ـ أمام خطاب الحلم الهامس الذي يحتاج لتواقيع وأذونات كثيرة قبل أن يرفع صوته.

جدة: البيوت الأنيقة المحوطة بالشجيرات والجدران المخربشة: الأهلي (. . .) كلمة بذيئة بين قوسين، تحتها وبلون آخر، الاتحاد. . . . . . كلمة أشد بذاءة بلا قوسين.

أشياء أخرى كثيرة ستمر الآن ولن أغمض عيني أيتها الشقية، لن أبكي ولن أكتب عنها حرفاً واحداً، فقط سأكتشف إلى أي حد مارسنا الاختلاف عن الآخرين وإلى أي حد دَفَعَنا هذا الاختلاف إلى منفى وربما عزلة تحفُّ الروح من أقصاها إلى أقصاها.

أغسطس.

وقلبي أشد وحشة من خردلة متروكة بين صخور هائلة تعصف بها بحور الحزن! قلبي الذي امتلأ بك يا صَبا حتى لم يعد يعرف كيف يبكي، كيف يصرخ محتجاً على رحيلك المتوحش: لا. ليس من حقك أن ترحلي هكذا دون إذن أو على الأقل دون تلويحة أخيرة.

لعنة الله على عامر وعلى الحب أيضاً.

أجل، لعنة الله على شيء لا يثمر عدا الموت. وهل غدا في حياتنا غير الموت؟ الموت المجاني، نصحو عليه وينام علينا.

موت في كل مكان وزمان. موت على ضفاف دجلة، فوق جنوب لبنان، في غزة، في القاهرة، في الرياض والخبر. تخيلي، حتى شوارعنا غدت مسارح للسيد المبجل الموت، حتى نحن صرنا نتحدث عن الإرهاب والتطرف. الكلمات المحظورة غدت مباحة أو على الأقل صار يمكن تداولها جهراً.

ربما كانت الدنيا يا صَبا تتغير، بل إنها تتغير. ترتدي قناعاً كابياً وتقف في الشرفة ترقب كيف يصطخبون عند بابها، كيف تسيل الدماء وتتفجر الشوارع ويتضخم المال، يتكدس ويتكدس ويتكدس.

المال!

السلاح الذي فُتنتْ به أمريكا مؤخراً. ينام كلينتون متأخراً وعند الظهيرة يصحو ليوَّقع عقوبات اقتصادية جديدة أجازها الكونجرس وأمامه يتزاحم الصحفيون والمصورون ومراسلو الوكالات ليسجلوا اللحظة بأدق تفاصيلها. تخلت أمريكا عن سياستها الانعزالية، تركت سياسة الولد المدلل الذي يشيح بوجهه عند الغضب. صارت تبحث عن أدوار جديدة وتنفس عن غضبها بالعقوبات. نضجت أمريكا أخيراً. (ها ها ها، حلوة نضجت هادي. مرة روعة).

لا أريد أن أضحك. أريد أن أبكي ولو دمعة وحيدة أغسل بها كل التفاصيل التي عشناها معاً. يقولون إن المرأة تهوى التفاصيل الدقيقة، حياتها كلها شبكة من التفاصيل المتلاحقة، المتناثرة، المتكومة في جهة ما، الخالية في جهة أخرى مثل قطعة عريضة من الدانتيلا بعروقها وورودها وخيوطها المتشابكة المعقدة. ربما يا صَبا لأن المرأة تشبه

قطعة الدانتيلا في شفافيتها وتفاصيلها الكثيرة المبهرة أحياناً؛ يهوى الرجال الكتابة عنها أكثر من فهمها. في آخر الأمر يا صَبا، المرأة أيضاً ـ ولن أستثني ـ ترتدي الدانتيلا دون أن تفهمها، والفرق أن الرجال لا يفهمون الدانتيلا ولا يرتدونها.

من قال إني أريد الحديث عن المرأة أو الرجل أو حتى الدانتيلا؟ لا أريد غير أن تهزني أمي الآن لأكتشف أني استغرقت في النوم وتركتك تنتظرين قدومي لنذهب إلى سوق الحجاز ونبتاع بعض ما نحتاجه، ثُمَّ نخترق الزحام صوب الكورنيش نشتري أكواز الذُّرة من عربة صغيرة على الرصيف ونبدأ التسكع حتى آخر مسافة ممكنة، نستسلم لعزلتنا وسط عالم لا نشبهه وعجزنا عن أن نشبهه.

أسألك ما الذي فعلناه طوال هذا الوقت غير أن نقرأ ونرشف القهوة ونتجادل ونتسكع أمام الواجهات الزجاجية ونستسلم لليأس دون أدنى محاولة للمقاومة؟ هل تعتبرين هذا إنجازاً؟ أنا أعتبره خيبة. أجل، خيبة جديدة في سرب الخيبات الذي يحلق في سماء القلب ويكفي أن أتذكر موتك حتى أتأكد من كلامي.

آه يا صَبا.

(جدة للغناء؛

فغني لتبكي الحساسين على صدري).

أصداء درويش مرة أخرى؟ لكن درويش وهو يعود إلى بيته في حيفا لا يبدو أشد حزناً مني الآن. يترك الحصان وحيداً ويعود. فارس يترجل عن فرسه على الحدود، يترك سيفه ويدخل عارياً إلا من روحه المجروحة وأساه الذي لا ينقضي. آدم الجنتين يعود على مهل ولن

أقول إنك حواء الجنتين. عاد درويش ثُم رحل. جاء ثُم ذهب. أزهرت سوسنة على حافة الحزن ثُم نقلها أحدهم إلى مكان بعيد. وأنت يا صَبا؟ غرناطة أخرى سقطت البارحة. (غرناطة للغناء، فغني) ولن تبكي الحساسين على شرفاتهم هؤلاء الذين لم يعودوا يعبئون بأحد أو بشيء. (يا صَبا، من قال إن الحساسين تحلق في سموات جدة حتى أظنَّ أنها ستبكي على شرفاتهم؟).

فغني إذن. غني ضجيج الناس أمام الشاطئ وازدحامهم في الأسواق. غني خروجهم من أسمائهم إلى الأسماء الغريبة، ضياعهم بين الذي مضى والذي سيأتي. وجوههم التي غدت بلا ملامح، باهتة كالحة مجهدة، غابت عنها الحياة كما غابت البراءة عن وجوه أطفالهم الذين يعرفون عن سلاحف النينجا أكثر مما سيعرفون عنك ـ هذا إن سُمِحَ لهم بأن يعرفوا. يحبون بوكاهونتاس ويشفقون على الجميلة التي ساقها قدرها إلى الوحش؛ فتمتلئ غرفهم بصورها وترينها مطبوعة على دفاترهم وحقائبهم المدرسية وثيابهم وساعاتهم. يحلمون بسندريللا وعروس البحر التي أحبتِ الأمير الشاب فضحت بصوتها من أجل أن تكون قريبة منه.

صورة آسرة للحب الذي حملناه إليهم، علمناهم إياه، بذرناه في طرقاتهم، تحت شرفاتهم، على رءوس جبالهم، وحين جاءت محاكم التفتيش سالت الدماء وفزع الحب إلى الله يسأله ملاذاً. كانت طيوره تصطخب مذعورة في البرية وكان كريستوفر كولمبوس يهشها عن صواري سفنه المبحرة بحثاً عن طريق آخر للهند لا يمر بالعرب.

أشياء كثيرة ـ لو يدري كريستوفر ـ لم تعد تمر بالعرب الآن. أشياء كثيرة تركتهم عند الأبواب الموصدة يجترون ما مضى ولا يحلمون بما هو آتٍ، ربما لأنهم لم يعودوا قادرين على الحلم.

ياه، أي عجز يا صَبا ألا نكون قادرين على أن نحلم؟!

أريد أن أبكي. بعد كل هذا الألم المخنوق أريد أن أُشرع بوابات البكاء الضخمة وأبكي طويلاً قبل أن تلج أمي الغرفة فيفزعها وجهي وكومة الأوراق المكدسة أمامي التي ظللت أكتب فيها مذ كانت البارحة عاجزةً عن الوصول إلى نقطة أقف عندها. كل نقطة فيها تصلح لأن تكون بداية بمثل ما هي نهاية.

وأنا عاجزة لأني مشوشة، أعرف أنك مُتِ لكنني غير قادرة على استيعاب ذلك. عاجزة عن أن أفهم لِمَ تموتين الآن في هذا التوقيت الموجع؟ لِمَ ينبغي أن ترحلي في زمن يرحل فيه كل شيء، كل أمل، كل حلم، كل أمنية انتظرناها ولا يبقى غير الذل؟!

أريد أن أبكي.

أجل أريد أن أبكي قبل أن تباغتني أمي برأسها المطل من وراء الباب فتلعن السهر والدمع وتلعنك ثُم تلعن الكتابة والأوراق التي اختلطت بأوراقك، الصور والرسائل التي خرجت من أدراجها والهدايا والمذكرات الصغيرة والأشرطة.

آه، ما أكثر الأشياء التي تركتها ورحلتِ! ألم أقل لك إنك قاسية، مستبدة مثل أغسطس الذي ضنَّ عليَّ بك ثُم بالدمع والعزاء؟!

كنتُ أريد أن أغفو والآن لا أريد غير أن أبكي. إلهي، إذا كان كل هذا الحزن عاجزاً عن أن يتقطر من أحداقي دمعاً فما الذي سيأتي بالدمع؟

لو أني أفتح النافذة الآن وأصرخ حتى ينحل وَثاقُ الدمع. ستدخل عليَّ أمي وستلعن مشرق اليوم الذي جمعني بك يا صَبا، اليوم الذي

يختبئ خلف عشرة أعوام طويلة قضيناها معاً إلى حد ظننت فيه أني عرفتك ثُمَّ اكتشفت أني لم أعرف أبعد من أدمة جلدك الحنطية سريعة العطب مثل ثمرة خوخ، تتبقع باللون الأحمر تحت الشمس وعندما ندخل البحر، وتزرَّق في أيام البرد ـ رغم ألا برد في جدة ـ لها ملمس الكستناء التي لم ينضجها الجمر، ملمس الأشياء التي لم تحرقها نار التجربة، ملمس الأطفال الذين ولِدوا ساعة رحلتِ، ملمس المخمل الذي لم يتثنَ ولم تتكسر أهدابه بعد.

أوه يا صَبا، اغفري لي إن عرفت عن جلدك أكثر مما عرفت عن روحك، وتعالي لتدليني على كلام أختم به كل هذا الأسى العاجز عن البكاء. أخرجي من برزخك ولو لدقيقة واحدة تسطرين فيها على الورق أمامي الكلمة الأخيرة التي يصمت بعدها الكلام.

أريد أن أكف عن الكتابة. إنها أشبه ما تكون بالنزف الذي أخذك إلى الموت، وأنا لا أريد أن أموت، على الأقل الآن.

لن تأتي. أعرف. لكن لابد من نهاية. (كل شي عم بيخلص) و (الحب أيضاً يموت) والفراديس قد تغدو يباباً يسلمنا للتيه.

آه يا صَبا، فليغفر لك الله. فليغفر للروح التي حلمت بالفردوس فامتطى الشيطان صهوة حلمها ولوى عنانه صوب اليباب وظل يضحك وهو يسمع اللعنات والهمزات واللمزات تلاحق روحك المتعبة.

لن أطلب لك غير الغفران الذي ما طلبته ربما خوفاً وربما يأساً، فليكن غفران الله غيمة تسوقها الملائكة الآن لتهمي فوقك ماء وثلجاً وورداً وطيراً صغاراً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلبأَبداياتها وحدها بل

أجل المغفرة. ربما كانت هي الكلمة الأخيرة؛ فليغفر لك الله يا صَبا. فليغفر لك الله. فليغفر لك الله.

نامي الآن، نامي يا طفلتي التي أجهضها اليأس البارحة. أغمضي عينيك العسليتين للمرة الأخيرة ودعي لي الحزن تركة العربي التي ظلت تكبر وتنمو ويعشوشب على أطرافها الذل والهوان. أجل دعي ذلك كله لي ونامي مجللة بالغفران والحساسين التي تبكي الآن على صدري.

ب

لو

عليّ أمي وستلعن

اختزال الروح

(انفلق أبا خالد).

هتف موسى عليه السلام فانفلق البحر وكان كل فرق كالطود العظيم. وها أنتذي أمام البحر تودين لو أشرتِ تجاه الموج (انفلق أبا خالد) ليتبدى أمام عينيك الرمل المبلول والطحالب التي ينحسر عنها الماء فتبيَّض، وأيضاً لتتقافز الأسماك وتفر السرطانات وكائنات البحر الدقيقة التي تخلف آثاراً واهية على الرمل تسحبين إصبعك فوقها فتتلاشى، تغيب وتحسين بالأسى إذ تفكرين أن ما ستتركينه أنت أيضاً خلفك ليس أكثر من أثر باهت يمحوه الموج وتمحوه الخطى التي تدب عجلى فوق الرمل. عجلى إلى حد ألا تنتبه لك أنت الملقاة سطراً غير مقروء على ضفاف هذا الصخب.

(انفلق أبا خالد).

لا من أجل أن تفري من فراعنة هذا الزمن ولكن من أجل أن تلتصقي بالرمل إلى حد الكتابة عنه، عن جدة التي غارت تحت البحر، عن خطى حواء التي تركتْها منذ أزمان فوق هذا الرمل وهي تسير تجاه آدم الذي كان يتوق لرؤيتها فسيَّرها الله إليه من جدة وتعارفا في عرفات.

ستعودين إلى البداية إذن، وجدة ستعيدك ليس لبدايتها وحدها بل

لبداية هذا العالم المجهد الذي يضطرب حولك كسمكة علقت في شص وظلت تقاوم، لكن ماذا عنك؟ هل مازلت تقاومين؟ هل مازلت تحلمين؟

في المدى يلوح سرب من النوارس الرمادية. يبدو قصياً إلى حد أن يكون حلماً ومبهماً إلى حد الضياع بين الماء والغيم.

تنكتين الرمل بأظفرك. تكتبين اسمك واسم خالدة. ترسمين يمامة صغيرة وتحتها تكتبين: جدة، وترسمين وردة بلا لون عدا لون الرمل وثَمَّ سطر تختلسينه من محمود درويش وتتركينه بلا ورود أو زينات أو أغصان:

(لم يبقَ لي حاضر

كي أمر غداً

قرب أمسي).

يلوح وحيداً على الرمل، يجابه الموج فإذا انحسر الموج بقيت رسوم منه وأطلال تقفين عليها وتبكين. أوه يا صَبا، أيتها العربية المحزونة لم تغيرك إذن كل هذي القرون التي عبرت والهزائم والخيبات.

(انفلق أبا خالد).

ستخرج قلاع وحصون وسفن غرقى. ستخرج عرائس البحر وقماقم سليمان وربما ستخرج جدة التي كانت لتأخذك من تاريخك إلى تاريخها السحيق، إلى كل الذين عبروا وتركوا جراحهم ثُمَّ مضوا.

تحبين جدة؟

أحياناً وأنت تجولين فيها تحسين أنك تبحثين عن ذاتك عن

تفاصيلك وأسرارك التي توزعتها الشوارع والبيوت والمنعطفات والأسواق. تلوح لك جدة مثل كتاب تخافين أن يباغتك الموت قبل أن تتمي قراءته.

جدة، إلى أي حد يمكن لهذه المدينة أن تكون مغوية؟

أوه، ما الذي جاء بالغواية الآن؟ الغواية كلمة مثيرة موحية لا يحبذون تداولها علناً وأنت مغرمة بكل مالا يحبذونه. دائماً خارجة من حدود أسوارهم متنائية عنهم. جدة أيضاً خرجت منذ أعوام بعيدة من أسوارها وأبراجها الحصينة وخندقها وأبوابها التسعة: باب مكة، باب جديد، باب اليمن وستة أبواب جهة البحر كلها ظلت خلف جدة، في كتب التاريخ وفي ذاكرة الأولين. ربما صاحت جدة ذات نهار (انفلق أبا خالد) كي تخرج من حدوده إلى حيث لا حدود، وربما خرجت منك أنت أيضاً وتركتك للأسئلة التي لا تكفين عن ملاحقتها وابتداعها.

إلى أي حد إذن يمكن أن تكون جدة غاوية مغوية؟

سؤالك ليس نابعاً من الريبة بقدر ما هو نابع من الحب. لا جديد في كلامك يا صَبا إذ تعرفين أن الأشياء التي نحبها هي الأقدر على إغوائنا، أما الريبة فإنها لن تدفعنا لسوى الابتعاد وأحياناً الركض وأنت ركضت في دروب جدة إلى حد الحب وهأنتذي على حافة البحر تركض بك الأفكار لحد الكتابة الموجعة المحبطة أحياناً.

والكتابة عن جدة لابد أن تكون مثلها صاخبة مجنونة تبدل وجهها كل يوم ولا تلتفت لحظة إلى الوراء، إلى الأسوار والأبواب والخنادق.

(آه، هل تستطيع جدة ذلك حقاً: أن تمضي دون أن تلتفت إلى الوراء؟).

يبلُ البحر أطراف تنورتك البنفسجية؛ فتحسين بوحشة وأنت ترقبين البلل يداهم أطراف التنورة مثلما يداهم ليل بقايا النهار. تفكرين بخالدة التي تحلم ولكن ليس إلى الحد الذي يستهويك وأحياناً يلوعك. تمتلك من الصلابة مالا تمتلكين وربما باغتتك بقدر من الحدة لكنها حدة الصدق التي تأسرك. وكم تمنيتِ لو كنت مثلها أنت التي فيك من الهشاشة ما يخيفك أحياناً ولطالما ظننت أنك ستعطبين سريعاً.

ولكن ما الذي جاء بهشاشتك الآن في وسط كلام عن جدة؟ لا تسبحي بعيداً عن الشط، عن جدة والأبواب التسعة أمام كل باب حارسان يسألان كل قادم عن كلمة السر، ولكل باب كلمة سر: افتح يا بحر أمواجك، افتحي يا غيمة عينيك، افتحي يا جدة أبوابك. عروس البحر الجميلة التي نبذها الموج جريحة فتمددت على الصخر وأغمضت عينيها لتنبت جدة. كان الصخر يغور ويغور ويغور والجسد يصير رملاً طرياً لائذاً بحِمى البحر، يصير برية تعانق البحر ماءها الذي خرجت منه. بصورة ما كلنا أيضاً خرجنا من ماء مهين.

انظري إلى أين تشطح بك جدة؟ ما رأيتِ سورها ولا خندقها ولا أبوابها التسعة وحين هدموه كانت أمك طفلة لم يعلق بذهنها شيء منه عدا الحكايا الصغيرة التي يتناقلها الناس عن العالم الذي كان يقبع خلف السور: بيوت القش وأعواد القصب، أكواخ الزنج والبدو ومقبرة الأوربيين التي لم يكن فيها غير يهود وأسيويين تركوا بلادهم القصية فقط كي يموتوا على تخوم جدة. لم تحكِ لك أمك عن المقبرة وربما

لم تدرِ بها لكنك تخرجينها الآن من أروقة ذاكرتك المتقاطعة لتفكري فيها أمام البحر والوحشة تمرُّ باردة بقلبك لأن الموت مرَّ ولأن المقابر مرَّت ومرَّت أيضاً أوراقك المبعثرة في الأدراج: قصاصات ورسائل ومجلات وصور وملاحظات مدونة على عجل ومسودات كثيرة مهملَة تمرين عليها وأحياناً تفكرين في تمزيقها فقط لتبدئي من جديد، من البداية التي تقترحها عليك جدة كلما فكرت فيها.

آه، جدة؟ ما تكون جدة؟

ألق الذكريات الصغيرة المتراصة مثل قطع الفسيفساء في ممرات روحك. الذكريات التي عجزت عن الخروج منها مثلما عجزت عن أن تجعلي نداءها أخف حدة. الذكريات التي تتراكم كل يوم طبقة فوق طبقة، مثل طبقات الأرض التي ينبشها علماء الآثار، وفي كل طبقة أحافير شتى، ألواح من الصلصال لم يكتشفها أحد، خطى لبشر لم ينتبه لمرورهم غيرك أنت التي لا تكفين عن اعتساف الأحلام حتى وأنت تسيرين وحيدة وسط زحام البلد. ربما تصيرين أنت أيضاً بعد دهر أحفورة من أحافير جدة أو نقشاً أصغر عمراً من نقش ثمودي ظلَّ مطموراً في وادي البويب آلاف الأعوام يضرع في البرية لإلهه كاهل قبل أن تلحظه عين:

(هكهل اثمن ورد

شمل اكه التبب فلل

. . . . . .

يا كاهل اجعلني كاملاً سلام

رسول التباب ذهب).

وأنت بعد آلاف الأعوام بماذا ستضرعين في برية لا شيء أمامها عدا البحر وربما لن يكون البحر موجوداً، ربما ستكون جدة قد هتفتْ ذات مساء (انفلق أبا خالد).

(انفلق أبا خالد: : !).

ياه، حتى البحر يحلم بالخلود ويتكنى به ورغم ذلك فإنكِ تدركين أنك أقرب للفناء من شذا الزهر حين يفوح قليلاً ثُمَّ يتلاشى وقد لا ينتبه له أحد. هل ظلَّ حولك من يهتم أو ينتبه لهذه الأشياء الصغيرة التي ترقبين ضياعها ـ وبحدة أقل انسحاب الأضواء عنها ـ هل بقي هناك من يهتم بها؟

ليست جدة وحدها التي تغير وجهها وتفاصيلها كل يوم. أنت أيضاً ـ وإن بصورة غير ملحوظة ـ تغيرين وجهك وتفاصيلك كل يوم، لكنك وأنت تتغيرين تدركين ما يحلُّ بك وتقاومين ولو بالعزلة وربما بالغضب الذي لا يجدي، الغضب الذي يحرق ضلوعك دون أن يحول بين جدة وبين الانغماس في تحولاتها، وأحياناً كثيرة تقاومين بأحلام جمة تتوالى مثل ذرق الحمام الذي يبدأ حاراً لدناً وينتهي بارداً مُتَكَلِساً على حواف النوافذ والشرفات والممرات دون أن يحفل به أحد.

تغمضين عينيك. الموج دائماً يصيبك بالدوار والبلل الحار يصعد حتى ركبتيك ويثقل ثيابك. وللحظة تحسين أنك تقفين خلف حاجز زجاجي سميك يحبس عنك أصوات الخيول والبغال والحمير والجمال والدراجات النارية التي تمرق خلفك على عجل وأبواق السيارات وعربات الآيس كريم، كل هذه الأصوات تجيئك مثل حلم، مثل موسيقا تنبعث من مذياع في غرفة خلفية يجلب أصوات العالم ولا يجلب العالم ذاته. الصخب الذي يتعالى خلفك أيضاً يجلب أصوات

جدة ولا يجلب جدة ذاتها لك. آه، ستعودين للأسئلة إذن، ما تكون جدة؟

أجل، ما تكون هذه التي حين تفكرين بها وبالكتابة عنها تدفعك دفعاً غير هين لأعماقك المضطربة؟ أي سر يكتنف هذه المدينة ويجعلك مولعة بها؟

الجبيل أيضاً كانت مدينة ملقاة على سيف البحر. مدينة بحرية مختصرة لم تألفيها رغم البحر. وفي «الكمباوند» الذي نزلت فيه مع أهلك لم يكن لك إلا أن تذرعي الممرات المرصوفة المزروعة الممتدة بين الوحدات السكنية الصغيرة الممتلئة بنوافذ لم تتحرك ستائرها الشفافة لأن لا أحد خلفها. كان الكمباوند خالياً تقريباً وفي جهاته البعيدة كان بعض الأمريكيين تيقنت من ذلك من سياراتهم والأعلام الصغيرة الملصقة على زجاجها، من طريقتهم في إلقاء الكلمات متآكلة سريعة. كنت تظلين ترقبينهم أحياناً وهم يخرجون ليلعبوا التنس في ساحة قريبة. ولم يحدث أن لوح لك أحدهم أو حتى انتبه. كانوا يمرون على الأشياء مرّاً؛ وإذ ذاك كانت الوحشة تدفعك للركض في الممرات خلف الكلمات والفراشات والحمائم التي كانت تهدل أحياناً على حافة السور والعصافير التي كانت تحطُّ على أشجار الممر الشاحبة مثل شحوب الجبيل التي لم تألفيها وربما لم تحبيها.

وفي ذلك المساء بالذات بدا أنك تودين الرحيل عن تلك المدينة التي زرعت فيك مللاً ووحدة. كان كل شيء كما تعودتِه ولم يدرْ في خلدك لحظة أن الجبيل ستتركك عما قليل مذهولة أمام باب الوحدة السكنية التي قطنتموها. كان الباب يئز بخفوت وحفيف الشجيرات يجيئك هامساً حزيناً وبيدك غصن عارٍ كنت تضربين به الإسفلت

أمامك إلى أن انبثقا فجأة في الممر. سمعتِ صوتيهما ثُمَّ رأيتِ الفتى بقبعة حمراء فاقعٍ لونها يتقدم الصَّبيَّة بوجه مُغضَب. كان يسير بسرعة وبيده حقيبة صغيرة ملونة تدلى منها شريط طويل لامس الأرض وهي تقف خلفه تناديه:

ـ جو، جو انتظر.

كانت كلماتها متوالية سريعة تتناثر في الفضاء حولها مثل فراشات من دخان لا تكادين تلتقطينها من مكانك حتى يمتلئ الفضاء بأخرى أسرع منها فَناءً، والصبية ذات الخمسة عشر ربيعاً ـ أو هكذا بدا لك ـ تضرب الأرض بقدميها وهي تردد عتباً حارقاً انشغلتِ بترتيب ترجمته في ذهنك. كنت تُقلّبين الكلمات في دماغك غير أنها لم تكُ تنتظر ترجمة كي تفهم، ركضتْ خلفه وحين أمسكت به كانا أمامك تماماً ودون أدنى التفاتة لك أو حتى لأحد طفقت تقبّله وتضمه وهي تتلو اعتذاراً صاخباً لاهثاً وقحاً ـ هكذا قلتِ لنفسك عندما كبرت قليلاً ـ وحين انتبهتِ كانا قد غابا خلف المنعطف القريب وكان الغصن الأجرد قد فارق أناملك إلى الأرض وكنت في الرابعة عشر وليس ثَمَّ من تلاحقينه في الممرات المزروعة وإذ تظفرين به تقبّلينه بصخب وأنت تعتذرين له. وكانت القبلة ذاتها شيئاً غير مفهوم في حياتك، ترينها في أفلام الفيديو وتعبرينها دون أسئلة كثيرة، وللحظة خُيِّل لك أنها ليست أكثر من افتراس ناعم. تضحكين الآن، لكنك وقفت مشدوهة يومها. قبل أيام وجدتِ نفسك مشدوهة أيضاً ـ وإن لم يكن بالحدة نفسها ـ ولم يكن في الأمر قبلة ما، كان صخب ما انبثق في أرجاء المقهى الذي جلست ترشفين قهوتك على إحدى طاولاته الصغيرة. هُرِعَ النادل حين دخل سرب الصبايا ـ ولن تقولي الغزلان؛

لأن الغزلان لا تصطخب ـ كان يريد أن يقودهن غير أنهن قُدنه. طفن بالمكان وحين عبرن بك تهامست اثنتان وبدا أنهن تراهنَّ على أنك في انتظار أحدهم. وكان بودك أن تبتسمي غير أنك تركت الصخب يمرُّ دون ابتسامة وعُدتِ إلى القهوة. وكان حظاً سيئاً أن يخترن طاولة قريبة منك، وما أن جلسن حتى بدأت إحداهن بالنقر على خشب الطاولة فيما البقية تغني:

(سلموا لي ع اللي غايب

سلموا لي

قد إيه أنا قلبي دايب).

كورال من الصخب. كورال لا يعبر عن نفسه قدر ما يعبر عن رغبته في أن يلتفت إليه أحد حتى وإن كان النادل الذي أسرع إليهن كي يصمتن غير أن أشياء كثيرة كان ينبغي أن تصمت قبل أن يستسلمن للصمت لأنهن انتقلن من (سلموا لي ع اللي غايب) إلى:

(مغرورة صار لك مِدِه

حاكيكي وما بتردي

نسيتي البيت براس الجرد

يا ما لِيالي تلج وبرد

سهرتي وضَليتي عندي).

قلتِ لنفسك (صخب F. M) غير أنك ما كنت قادرة على تلوميهن رغم الإزعاج، وربما أحسست بالشفقة عليهن. تذكرت الطيور في أقفاصها وداهمك الأسى وهُنَّ يغنين بجنون وبصخب أكثر، وحين هممن بالرحيل لوحت لك إحداهن وهي تقول بصوت ساخر:

ـ هاي يا قمر. قومي روحي بيتكم أحسلك. ما ح يجيك. تلاقيه من كُثُر مواعيده نسي موعده معاك.

وانفلتت منها ضحكة شريرة لم تنشغلي بها قدر ما انشغلت بتبرير هذه القسوة التي بادرتك بها. هي ذاتها التي رمت أشواكها عليك رأيتها وهي تغمز للنادل وتمرُّ بيدها على يده، وحين التصق كتفها بكتفه لم تبتعد فيما الرجل يلوب مضطرباً يضرع لإلهه كي لا تحرق النار التي استعرت في جسده تعقله وتدفعه للجنون. ورغم ذلك كله فإنك لم تبادريها بالقسوة، لم تطلقي عليها رصاص الكلمات الموجعة. كنت تفكرين في الأشياء المرة التي دفعتها لذلك فإذا بها ترمي سوءها عليك. هي النقية وأنت الملطخة لأنك جلست وحدك إلى طاولة في مقهى أنيق ترشفين قهوتك في انتظار غائب إلا عن ظنونها.

يا الله.

أترين إلى أين أخذتك جدة؟ هاهي تبعثرك وأنت التي فكرت في بعثرة تفاصيلها. هاهي ذي تأخذك من الجبيل إلى ذاتك. ربما ولفترة من عمرك اعتبرت موقف الجبيل أيضاً قسوة وجهت ضدك وإن كان ذلك بدون قصد. لم يكن لك من الخبرة ما يجعلك قادرة على التسامح. وفي المقهى حين امتلكت الخبرة والتسامح لم يكن بإمكانك ألا تحسي بالغصة؛ لأن القسوة كانت متعمدة. وللحظة بدا لك أن فتاة المقهى كانت مدفوعة للقسوة، ولم تقتنعي بالفكرة لكنك قلَّبتِها قليلاً وأنت تقولين لنفسك إن القسوة نتاج القسوة، ليس دائماً ولكنها أحياناً تكون. وكانت خالدة قد تلتْ عليك حديث القسوة من قبل وقالت لك (إن القسوة تكاد تخلع الناس من جلودهم والذين لا يقسون على

الآخرين يقسون على أنفسهم. انظري إليهم وهم يمضون سراعاً لا يعبئون بأحد أو بشيء، يلاحقون المال وB. M. W وMarina B. وحفلات الزواج الباذخة التي تحييها فنانة العصر (. . . . . . .) ومبدع الأجيال الساحق الماحق الذي ما أن يطل حتى تعلو تنهدات الصبايا (. . . . . .). هذا الساحق الماحق ذاته كان هدفاً لقسوة أربع شابات اقتحمن عليه غرفته في الفندق الضخم واغتصبنه على مرأى من السجاد والأرائك والثريات و. . . الله في عليائه). قالتها خالدة ووجمتْ وأنت تفتحين أحداقك عن آخرها (خالدة مو معقول) (معقول. معقول جداً، لكن ينبغي أن أقول إنهن لن يندفعن لمثل هذه القسوة إلا إذا كانت القسوة الواقعة عليهن أشد. وصدقي أني لا أبرر لهن تصرفهن، لا أنا أبرره لنفسي كي لا أتهاوى). واستسلمتِ للصمت. لم تفكري في الذي سمعته، بل كنت أيضاً تحاولين أن تتماسكي كي لا يجرفك تيار اليأس. وهل ظلَّ للمهرة العربية غير اليأس؟ تسألين ولا تنتظرين جواباً كما وأنك لا ترغبين في التمادي في حديث القسوة الذي لن ينتهي، ولكن هاهي جدة تمارس معك لعبة الكشف والتلصص عبر ثقوب الأبواب المزخرفة. تعبئك بالتفاصيل التي تنثال أمام عينيك، تترامى فوق سجادة البحر دون ترتيب؛ ربما لأن الترتيب يُفقد الأشياء عفويتها ويضعها تحت رحمة التصنيف.

وحينما تكتبين عن جدة فإنك أيضاً لن ترتبي، ستنثال الكلمات والأشياء والأحداث والوجوه والأسماء على الورق. تغادر وعيك ولا وعيك أيضاً، تلبس الكلماتِ وتمتد سطوراً على الورق. لن تكتبي تاريخاً كي ترتبيه، بل ستكتبين / سترسمين جدة التي عرفتِها وتعرفينها: الدهشة، واللهفة، والإحباط والشجيرات المزروعة على

طوال رصيف شارع الملك وصِبيَةً يتراكضون بين السيارات عند الإشارات يلوحون بعُلَب المناديل وعقود الفل والياسمين وبنات صغيرات بأدمة سمراء يذرعن الكورنيش وفي أيديهن أكياس ممتلئة بالمفرقعات، يعبرن دون إلحاح أو صخب يكفيهن إشارة كي يأتين وتكفيهن (لا) كي يبتعدن. ستتركين لكل هذه الأشياء ولأشياء أخرى كثيرة حريةَ أن تنثال على الورق كلاماً لا يمدح ولا يهجو ولا يبرر ولا يفسر، كلاماً يتأنسن في وقت يكاد الإنسان فيه أن ينقرض دون أن يفزع أحد لحمايته، كلاماً أشبه ما يكون بصور صغيرة مختلطة قديمة جديدة أصيلة مبتدعة، تلتقطينها بأناملك، تتأملينها ثُمَّ تضعينها الصورة بجوار الأخرى، الصورة لا تشبه الأخرى، الصورة لا تمت للأخرى بصِلَةٍ لكنها كلها ستكون جدة وستحكي عن جدة، ولا تدرين إن كنت ستنجحين في ذلك أم لا لكنك ستجربين. الحياة كلها تجربة حين نفهمها ونستوعبها يكون الموت قد وقف بالباب.

فلتجربي إذن. فلتكتبي ليس تأريخاً لهذه المدينة. لا لن تؤرخي لأنك لستِ معنية بتاريخ اسقم قلبك. فليبقَ التاريخ في طيات الكتب وخلف الأسوار التي هدم العسكري حسن الكردي بيوت جدة كي يتم بناءها ويحصِّن جدة ضد غزوات البرتغاليين الذين فردوا قلوعهم في البحار وانطلقوا كي يكتشفوا الفراديس السبعة وجزائر البهار واللؤلؤ والحرير والأرض التي تنبت نساء لا يهرمن ولا ييئسن. كانت سفن البرتغاليين تجوب البحر وكان حسن الكردي يهدم جدة كي يحصنها. منطق تعجزين عن تقبله: أن يهدم كي يحمي، لكن ليس من حقك مصادرته، كما أن ليس من حقك أن تتهمي الرجل بالقسوة إذ تأخر أحد البنائين عن موعده فبنى السور فوقه وتركه يموت على مهل تحت

الطين والحجر. يموت كي لا تموت جدة، يموت كي يعلو السور ويحوط ما بقي من مدينة رفعت من طينها وحجرها وشجرها وطيرها وبشرها جداراً كي لا يبقى للغزاة القادمين من خلف البحار شيء.

أوه جدة. متى سينتهي الكون؟ وإذا انتهى هل سيعرجون إلى الله في سمائه منها وهي التي شهدت نزولهم؟

تلتقطين صدفة صغيرة وما أن تستقر بين أناملك حتى يغلق كائنها الرخو الصدفة على نفسه. وللحظة تباغتك هشاشة الحياة الرخوة التي تحتمي خلف الأصداف المتناثرة بطول الشاطئ. خلفك تماماً كانت البنايات العملاقة وبين أناملك كان الكائن الهلامي الصغير المتمترس خلف جدران الصدفة المرقشة بنقاط صغيرة بيضاء ناتئة قليلاً. تتأملين ألوانها المتداخلة ونقاطها المتناثرة فيما ذاكرة أصابعك تختزن الملمس الناعم الذي ستذكرينه وأنت تكتبين. ومن بين ملمس أشياء أخرى كثيرة سيظل ملمس الصدفة المرقشة عالقاً بذاكرة أصابعك ليس لنعومته ولكن لقدرته على أن يعود إلى ذاكرتك حينما تمرُّ أناملك على بتلات الورد والمخمل والصور الملونة وأغلفة الكتب الفاخرة والورق الصقيل وقمصان الحرير المعلقة في خزانة ثيابك تحركينها فتهتز ورودها المطبوعة وتحلق فراشاتها وأطيارها وتمتلئ الخزانة بأصوات الكون التي تجيء من كل مكان حتى من بحر جلستِ أمامه كثيراً فمرت صدفته المرقشة بك ومرَّ ملمسها هذا الذي تعودين إليه الآن مثل حلم تنتبهين وأنت تعيشين تفاصيله إلى أنه حلم، مجرد حلم.

جدة.

كيف لك أن تقولي عنها كل ما تريدين وأنت إذ تحاولين تجدين نفسك منغمسة في أن تقولي عن نفسك كل ما لا ترغبين في قوله وفي

كتابته لئلا جدوى من الكتابة عنه؟ ولكن، يا صَبا يا غرة يا مغرورة من أنت حتى تقرري جدوى الكتابة؟ وما الذي كتبته حتى هذه اللحظة حتى تصدري أحكامك الساذجة؟ ما الذي جربته، وما الذي عرفته؟ وكم عاماً مرَّ مذ فارقت رحم أمك قطعة حمراء من اللحم تصرخ طلباً للغذاء والدفء مثل أي حيوان في البرية لكن الحيوان لا يصرخ؟

أغمضي عينيك الآن ودعي جدة تخرج رويداً رويداً من خلاياك وبمرور الوقت ستكتشفين أنك أنت من يخرج من خلايا جدة، وستكتشفين أيضاً أنك خرجت بعدد الصِّبغيات نفسه الذي لجدة وبترتيب الحامض النووي D. N. A ذاته، وأنك لشدة تعلقك بها بدأت تصيرينها. أمك أيضاً تقول (إن المحبينَ يغدون مع الوقت متشابهين).

حبك لجدة كان أيضاً يدفعك للحماقة، وأي حب ذاك الذي يخلو من حماقة؟ كنت تصرخين: إنها أجمل مدينة! وإذ مرَّ العمر تعلمتِ أن ليس هناك أجمل ولا أقرب ولا أتعس، هناك فقط: حبنا الذي يمنح الأشياء ملامحها وأسماءها وألوانها. نضج الحب، ليتك أنت أيضاً تفعلين. أجل نضج الحب وصار يستحق الكتابة عنه الآن. يستحق أن تسجلي أن جدة ليست طرقاتها المكتظة، ليست جسورها ولا مبانيها، ليست أسواقها ولا نوارسها ولا بحرها، ليست بشرها بأحلامهم وآمالهم وشرورهم. لا، بل هي أعمق إلى حد أن تكوني عاجزة عن احتوائها، وهي أبعد إلى حد أن تكوني عاجزة عن بلوغها. إنها الروح التي تملؤك إذ تقفين في شرفة بيتكم لا ترين البحر ولكنك تعرفين أين يكون. تعرفين أيضاً أي صخب يتعالى حينها في شارع الذهب وتكادين تلمحين سيارات (الليموزين) وهي تذرع مسارات الطريق، ثُمَّ

ينعطف سائقوها بغتة دون إشارة كأن لا سيارات أمامهم. ومن بين كل الأصوات يتعالى صوت مكبح يخترق الآذان مثل صرخة بليل بهيم.

تعرفين أيضاً ألا وقت في جدة للتأمل مع أن كل ما فيها يغري بتأمله. وها أنتذي أمام البحر تتأملينها بقدر ما تتأملين روحك القلقة، وتفكرين بل تتحمسين للكتابة عنها، في اختزالها في كلمات وسطور، لكن هل من الممكن حقاً اختزال الروح؟ هل من الممكن اختزال وردة وضعتها على حافة نافذتك ثُمَّ سهوت عنها وإذ عدت وجدتها بقعة من دم على إسفلت الشارع الموحش؟

لكن جدة ليست وردة والكتابة ليست شرفة، وأنت الآن إذ تواجهين البحر لستِ أكثر من تفصيل صغير للغاية في لوحة ضخمة وربما كان أحدهم يتأملك ليكتب عن جدة التي يعرفها.

عودي إلى جدة إذن، عودي إلى النبش بحثاً أو استخراجاً لما اختبأ تحت البحر منها. عودي إلى البحر (انفلق أبا خالد، انفلق أبا خالد، انفلق أبا خالد).

انتهت

١٩٩٦م

الفهرس

هذا الكتاب

«الفردوس اليباب». هي الرواية الأولى التي تنشر للكاتبة السعودية الشابة ليلى الجُهني. رواية تقتحم الواقع المعاش، تعكس العوالم النسائية الحقيقية.



